
نوال السعداوي
لحظة صدق
دار الآداب

لحظة صدق

دكتورة نوال السعداوي

لحظة صدق

منشورات دار الآداب ـ بيروت

الطبعة الأولى
القاهرة
الطبعة الثانية
١٩٨٦ - بيروت
الطبعة الثالثة
١٩٨٩ - بيروت

الاهـــداء

كثيرا ما تألمت ، ولكنى لم أعرف ألما أشد ضراوة من ذلك الألم الذى يصيبنى حين أكذب على نفسى ٠٠٠ وكثيرا ما سعدت ولكنى لم أعرف سعادة أعذب من تلك السعادة التى أشعر بها حين أعيش مع نفسى لحظة صدق ٠

لتكن الحقيقه ما تكون ، ولكنها تنطوى فى أعماقها على شىء ساحر ، أشد سحرا منها نفسها مهما كانت ، شىء لايكتشف الا فى لحظة الصدق التى نواجهها بها ٠

فالى كل من ذاق حلاوة الصدق مع نفسه لحظة ٠٠٠ والى كل من حرم حلاوة الصدق مع نفسه لحظة » أهدى هـذه المجموعة من اللحظات ٠

« نوال السعداوى »٠

حينما ينهزم الرجل

جلس الى مكتبه الذى تكدّست عليه الأوراق الهامّة وغير الهامّة قلقاً حائراً .. شيء فى أعماقه يدفعه الى أن يترك مكتبه ويذهب الى بيته ويأخذ حمّاماً ساخناً ويبدّل ملابسه ويرتدي ملابس جديدة قبل أن يذهب اليها .. فالليلة موعده معها .. موعده الفاصل الذي جاء بعد مواعيد كثيرة والذي سوف يحدث فيه شيء .. شيء آخر غير ما كان يحدث كلّ مرة .

ونظر الى ساعته .. كانت السابعة .. وموعده معها فى التاسعة .. أمامه ساعتان كاملتان يمكن له أن يستعدّ لهذا اللقاء الحاسم ..

وأغلق درج مكتبه بسرعة وقال لمساعده الشابّ إنه ذاهب لإنجاز بعض الأعمال الهامّة .. واستقلّ سيّارته .. وانطلق الى بيته .. ووضع المفتاح فى شقّ الباب الصغير المظلم ولفّه مرّتين ثم دفع الباب فلفحت وجهه ريح باردة رطبة تسكن

شقّته دائماً أبداً ، صيفاً وشتاء لا تتغيّر كثافتها ولا رائحتها بالرغم من دورات الشمس والقمر والأرض ·· لكنّها تظلّ دائما رطبة باردة قابعة في تلك الشقّة الضيّقة الواسعة ، الضيّقة بجدرانها الكلبية العاليه كأنها أسوار قلعة عتيدة شربت من دماء البشر أجيالاً وقروناً ·· وواسعة بتلك الحجرات الخاوية العارية إلاّ من أثاث ضئيل صغير يستند متهالكاً الى زوايا الجدران ·· كأنّه قطع أثريّة تركت منسيّة في كهف من الكهوف ··

ولم يكن يفكّر من قبل في منظر شقّته وأثاثها ورطوبتها ·· وكان يستضيف فيها فريساته من النساء ·· ويقضي معهن الليل على سريره المعدني البارد ·· لكنّه لم يستطع أن يفعل ذلك معها ·· كان حريصاً على ألاّ يدعوها الى شقّته وقال لها إنّه هو الذي يجب أن يذهب اليها لا أن تأتي هي اليه كباقي النساء ·

وجرى الى الحمّام وأشعل السخّان · وخلع ملابسه ولبس ملابس البيت ·· وأحضر أدوات الحلاقة ووقف أمام المرآة يتحسّس ذقنه بأصابعه ·· لقد حلقها صباح اليوم ولكن لابدّ له أن يحلقها مرّة أخرى حتّى تكون ناعمة كالحرير · إن موعده معها الليلة ليس كأيّ موعد سابق ·· سوف يقبّلها حتماً وسوف يلامس وجهه وجهها ولابدّ لبشرته أن تكون ملساء ··

ونظر الى وجهه في المرآة وتحسّس شعرات رأسه البيض وأخذ يعدّها شعرة شعرة كعادته كلّ ليلة ·· ولما وجد أن عددها ستة وعشرون شعرة كليلة الأمس انبسطت أسارير وجهه ·· لكن قلبه لم يلبث أن انقبض حين لمح خطّين رفيعين تحت عينيه ·· هذان الخطّان لم يكونا بالامس ·· وفتح درجاً في أسفل المرآة وأخرج علبة الكريم الطبّي الذي يغذّي البشرة ووضع بأصبعه قطعة صغيرة تحت عينيه وأخذ يدلك بشرته بأطراف اصابعه تدليكا خفيفا حتى خُيّل إليه أن الخطّين الرفيعين قد ذابا تماما بفعل الكريم الساحر ··

ينظر في عينيه يتأمّلهما فرأى سوادهما باهتاً ٠٠ تغشى بياضهما صفرة كئيبة جعلتها أشبه بعيون مرضى الكبد والصفراء ٠٠ وأحسّ بالفزع فجرى الى رفّ صغير في الحائط وأخذ منه زجاجة دواء وابتلع منها قرصين ثم أعادها الى مكانها وسحب زجاجة أخرى وشرب منها معلقة كبيرة ٠٠ ثم أخذ قطعة صغيرة من القطن وغسل جفنيه ورموشه ٠٠

وعاد ينظر الى نفسه في المرآة ٠٠ وأمسك بماكينة الحلاقة وراح يحلق ذقنه بعناية فائقة ٠٠ وحلق نصف وجهه وتحسّس بأطراف أصابعه فاذا ماعثر على شعرة نافرة أو على بقعة خشنة عادفأجرى عليها الماكينة ولا يتركها إلاّ بعد أن يتحسّسها ويجدها ناعمة نعومة الحرير ٠

وانتهى من حلاقة ذقنه فأمسك المقصّ وشذّب أظافر يديه وقدميه ثم حمل ملابسه النظيفة على كتفه ودخل الحمّام ٠

وأخذ ساعته معه وعلّقها في مسمار في الحائط ٠٠ كان خائفاً من أن يسرقه الوقت الممتع الذي يقضيه غارقاً لنصفه في الماء الساخن والصابون المعطر فيتأخر عن موعده معها ٠٠ وهو حريص على أن يذهب اليها في الموعد تماماً بالدقيقة ٠ فقد حدث ذات ليلة أن ذهب اليها متأخراً خمس عشرة دقيقة، ولم يكن يبغي من هذا التأخير سوى أن يلهب شوقها اليه بشيء من الانتظار ٠٠ لكنه حين وصل الى شقّتها وجدها مظلمة وظلّ ضاغطاً على الجرس زمناً طويلاً حتى يئس ونزل ٠٠ ولم يعرف ليلتها هل كانت بالبيت وتعمّدت الاّ تفتح أم أنّها خرجت الى موعد آخر ٠٠ وحين سألها لم تعطه تفسيراً واضحاً وقالت في صراحة وصدق ٠٠ لقد تأخرت وأنا لا أطيق الانتظار ٠ وأخذ يدلك جسمه بالماء وهو يسأل نفسه أيمكن أن يصدر هذا العمل عن امرأة تحبّ ؟ ٠٠ ولم يحاول أن يصدّق أنّها لا تحبّ ٠٠ وكيف له أن يصدّق أن هناك امرأة لا يمكن أن تحبّه ؟ لقد أحبّته مئات النساء من قبل ولاتزال تحبّه العشرات والعشرات، وهو يبتكر في كلّ يوم أساليب جديدة للهروب من النساء ٠٠ كيف لا تحبّه هذه المرأة

وتحترمها احتراماً بالغاً ٠٠ ولسوف يُخضع هذه الأنوثة الليلة اذن ؟ هي تحبّه بلاشك ولكنها امرأة عنيدة تعتزّ بأنوثتها ولسوف يحطّم عندها وكبرياءها ٠٠

وعادت الى ذاكرته صورتها حين رآها لأوّل مرة ٠٠ كان ذلك منذ عامين تقريبا ٠٠ وكانت تجلس وسط عدد من الرجال والنساء ووجد عينيه تمرّان بسرعة على كلّ الوجوه لتستقرّ على وجهها ٠ كانت ملامحها غريبة بالنسبة لملامح النساء ملامح متّسقة متكاملة تنطق بأنوثة عارمة، ولكنها أنوثة غالية مثقفة تثير في نفس الرجل المغرور برجولته بالذات رغبة عنيفة في تحدّيها وإخضاعها ٠٠

وكان تعوّد أن يُخضع النساء ٠٠ وأدمن لذّة إذلالهن وإخضاعهنّ له حتى تضخمت رجولته وأصبحت القسوة على النساء صفته الاولى ٠٠ فهو لا يشعر بلذة عناقه للمرأة الا بعد أن يصفعها على وجهها بضع صفعات ويجذبها من شعرها بقوّة حتى تستلقي رأسها بين قدميه وتمرغ أنفها في ترابهما ٠٠ بعد ذلك يقبّلها ٠٠

علّمته تجاربه مع النساء أن المرأة بغريزتها الأولى التي لا تستطيع منها خلاصاً مهما تحرّرت وارتقت، فإنها تعشق موضعها عند قدميّ سيّدها الرجل ٠٠ وتعبد قسوته وقوّته وعناده وكبرياءه وجبروته ٠٠ وتشمئزّ من رقّته وحنانه وهيامه ٠٠

العذاب ٠٠ هو الخيط الحريريّ الرفيع الذى يربط المرأة به ٠٠ المرأة تحبّ الرجل الذى يعذّبها ٠٠ فلماذا لا يعذّبها ليلفّ حول رقبتها ذلك الخيط الحريريّ ويشدّها وراءه ؟

وأخذ يدلك أصابع قدميه بالصابون المعطّر ٠٠ ولاحظ كعادته أن أصبع قدمه الصغير أصغر من اللازم لا يكاد يشبه أصبع الآدميين فهو قصير سميك كرويّ ٠٠ كأنه مخلب مكسور لحيوان أليف ٠٠ أوبرعم عقيم في شجرة عجوز ٠٠ كثيراًما كان يشعر بالاشمئزاز من جسده وخاصة فتحتيْ أنفه حين يصيبه الزكام والرشح فيشعر كأنهما فتحتاصنبور عتيق بليتجلدته

وفى حاجة الى قطعة غيار جديدة ·· وكثيراً ما ضاق من منظر أسنانه الصفراء وتمنّى لو خلعها جميعاً وركّب أسناناً جديدة ··

ولكن هل يمكن لامرأة أن تكشف عيوبه التى يعرفها ؟ إن المرأة كما فهمتها ليست كالرجل ·· أنها تنظر الى الرجل ككل وليس كأجزاء أو أعضاء · ان الرجل فى نظرها سيّد ·· إله ·· يمنحها الحياة واللذّة والغذاء، فكيف لها أن تدقّق النظر فى جسد الإله ؟ كيف تجرؤ على أن تنظر الى أسنانه الصفراء المشرشرة وهو يقبّلها ·· كيف تجرؤ على أن تتأمّل أصابع قدميه حين يستلقي رأسها بينهما ؟ ·· يجب أن تغمض عينيها ·· كلّ النساء يغمضن عيونهن ·

لقد فهم المرأة وعرفها بعد أن قضى من عمره عشرين عاما يتدرّب على تقبيل النساء وعناقهن حتى أصبح أستاذا للحب والغرام ·· وبلغ من عمره الأربعين عاماً ولم يفكر فى الزواج وهو قد تزوّج مئات المرات وأنجب مئات الأطفال ·· بعضهم تمزّق اشلاء بيد الطبيب الجريء وبعضهم يعيشون فى بيوت أزواج من الرجال ويحملون أسماءهم ولا أحد يعلم الحقيقة الا الزوجة وهو ·· وكثيراً ما كان يزور أحد هؤلاء الأزواج ومعظمهم معارفه وأصدقاؤه ·· وينظر الى عينى الطفل البريء ويرى فيهما نفس لون عينيه ونفس ارتفاع أنفه ·· لكنه لم يشعر قط بذلك الشعور الذى اسمه الأبوّة بل كان ينظر الى الزوج الغبيّ الجاهل فى لذّة تفوق لذة الشياطين ·· ويشعر بالزهو لانتصاره على الرجال والنساء معاً ·· وكان كلما فكّر فى الزواج تراءت له زوجته فى أحضان رجل آخر ·· وتراءى له أطفاله يجرون فى بيته وينفقون من ماله ويحملون اسمه وهم أولاد رجال آخرين، فترتعد فرائصه من الهلع ويلعن الزواج ويمجّد العزوبية ··

وصبّ الماء الساخن على جسمه وقدميه ·· ونهض ، واقفاً وأمسك المنشفة ·· وأخذ يجفّف جسده بعناية ·· واعترف بينه وبين نفسه أنه كان يسعى طوال حياته الى الانتصار ··

الانتصار بأيّ شكل وبأيّ ثمن .. اذا خالفه رجل فى رأيه وكان صائباً فإنّه يعاند ويتحمّس ويناقش ولا يهدأ حتى ينتصر .. واذا رغب فى امرأة ولم ينلها ظل يطاردها بأساليب مختلفة بعضها اهتمام وبعضها إهمال ، حتى تقع الفريسة بين يديه ..

وكان يعلم أن إنتصاره على المرأة يبدأ حين تسلّم له جسدها .. حينئذ يعلم أنّها سلّمت كل أسلحتها وأنها سوف تلاحقه وسوف تستعطفه وسوف تستجديه وأنه سوف يشدّها من رقبتها وراءه بذلك الخيط الحريريّ المتين .. فما الذى يبقى للمرأة بعد أن تمنح جسدها للرجل سوى الالتصاق الأبديّ أو الندم والحسرة والهوان ؟!

ولم يكن يؤمن بذلك الالتصاق الأبديّ بالمرأة بل لم يكن يؤمن بأيّ التصاق بها على الإطلاق .. فلم يكن يبقى للمرأة منه الا الهزيمة والهوان . وهو لا يشعر بانتصاره الا حينما تغسل المرأة بدموعها قدميه .. حينئذ يعرف أنّه حقّق الغرض الأسمى لرجولته .. فتنتهي مهمّته معها ويبحث عن فريسة أخرى يسلك معها نفس الطريق ..

ووقف أمام المرآة يمشط شعره الأكرت .. وشعر ببعض الارتياح .. لقد أهتدى أخيراً الى مفتاح المرأة الجديدة وتعرّف على طريقها الوعر الشاذّ .. كانت قد عذّبته عامين كاملين وهى ترفض قبلاته ... حتّى لمسات يديه كانت لاتصيبها بتلك الرعشة التى تصيب النساء فترتخي جفونهنّ .. لكنّها لم تقتل الامل فى قلبه ... كانت تجلس معه وتتحدّث اليه وتدقق النظر فى ملامحه وخاصّة الى أسنانه التى لم يعجب بها قط طوال حياته رغم اعجابه الشديد بعينيه وأذنيه ..

واستطاع فى هاتين السنتين أن يحوّل نظرها من أسنانه الى عينيه وأذنيه .. واستطاع أيضا أن يجعلها تعجب بكلامه فرأى نظراتها القويّة الثابتة تلين .. ولمح بريق أنوثتها العارمة يتّقد فى عينيها فاقترب منها وحاول أن يقبّلها ، لكنّها ابتعدت عنه وقالت فى عناد وكبرياء :

هل تحبّني ؟ فنظر اليها مستغربا ٠٠ كيف تجرؤ امرأة على أن تسأله هذا السؤال ؟ ٠٠ لم تشترط عليه امرأة من قبل أن يعترف بالحبّ قبل أن يقبّلها ٠٠ فسألها بدوره : هل تحبينني؟ ولم يكن يشعر بحاجة الى هذا السؤال فهو يعلم أنّها تحبّه وإلاّ فما الذي يدفع امرأة مثلها الى أن توافق على لقائه ٠٠لكنها أجابت في قوة وصدق : لا ٠٠ ليس بعد ٠

وأحسّ بالدماء تغلي في رأسه ٠٠ وودّ لو صفعها على وجهها ، لكنها سألته بجرأة : هل تحبّني ؟ ولم يستطع أن يكون في مثل قوّتهاوصدقها فأطبق شفتيه في صمت ٠٠ لم يكن يريد أن يمتهن رجولته الغالية ويشعر أنه رجل رخيص ككلّ الرجال يتاجر باسم الحبّ ويكذب على المرأة بكلمة أحبّك ، حتى ينال منها ما يريد ٠٠ لقد عوّدته انتصاراته المتكرّرة مع النساء على ألاّ يكذب ٠٠ فهو في غير حاجة الى الكذب ٠٠٠ كانت النساء يعطينه قلوبهنّ ، وأجسادهنّ دون أن يكلّف نفسه مشقّة الكلام عن الحبّ ٠٠٠ وأصبحت كلمة الحبّ التي تخرج من بين شفتيه أغلى عنده من قلب أيّ امرأة ومن جسد أيّ امرأة ٠٠٠ كانت رءوس النساء تستقرّ بين قدميه بلا مقابل ٠٠ بلا ثمن ٠٠ بلا وعد ٠٠٠ بلاشيء على الإطلاق ٠٠٠ بل أحياناً ما كانت المرأة هي التي تدفع له حتى لا يقطع صلته بها الى الأبد وتظلّ تخدع نفسها بذلك الأمل الكاذب في أنه سيأتي اليها يوما ٠

وفتح صوان ملابسه وارتدى بدلة انيقة وأخذ زجاجة العطر الثمين ووضع نقطتين تحت كل إبط ٠

وركب عربته وتطلّع الى المرآة الصغيرة وأعجب بشكله إعجاباً كبيراً ٠٠ وشعر كأنه عريس جديد ذاهب الى عروسه ، ليلة الزفاف ٠ وتخيّلها وهي جالسة في حجرة الاستقبال تنتظر قدومه ٠٠ لابد أنّها قضت في الحمّام اليوم كله ، تدلك ذراعيها وساقيها،ولا شكّ أنها ترتدي فستاناً عارياً يظهر مفاتن جسدها ٠٠ ولا شكّ أنها تعطّرت ٠٠ إنها أنثى رغم عنادها وقوتها ٠٠

وتخيّل نفسه وهو يقبّلها ويعانقها وهي تسلّم له جسدها ثم تبكي .. كلّ النساء يبكين بعد أن يستسلمن .. وشعر بالزهو والانتصار حين تخيّل دموعها ... كم تشوّق كثيراً أن يرى دمعة واحدة تطفر من هاتين العينين القويّتين الجريئتين .. وتخيّل رأسها الصغير بين قدميه وهي تستجديه وتستعطفه أن يبقى ، ولكنه لايبقى .. ثم تطلبه فى اليوم التالي فيردّ عليها فى جفاء .. فتطلبه مرّة أخرى وأخرى تحاول أن تفهم لماذا نهب جسدها وهرب .. وهو لا يستطيع أن يشرح لها نفسه .. لايستطيع أن يقول لها إنّه لم يكن يريد جسدها لذاته فهو هارب من أجساد النساء ولكنه كان يريد أن ينتصر عليها بعد عامين من اللهفة والعذاب ، والانتظار .. أن يخضع أنوثتها العنيدة .. أن يشعر بها وهي ذليلة جريحة تتعثّر فى استسلامها له وتبكي على ضعفها وهزيمتها .. أن يلفّ حول عنقها خيطه الحريريّ القاتل ويشدّها وراءه .

ووصل الى شقّتها ولم يستطع أن يخفي دهشته حين رآها .. كانت كعادتها ترتدي رداء قاتما لايُظهر شيئاً من ملامح جسدها وشعرها مرسل دون عناية .. ولم يشمّ رائحة أيّ عطر نسائيّ ... وجلس أمامها ببدلته الأنيقة وشعره اللامع المغسول وفاحت رائحة عطره فى الشقّة الصغيرة فشعر بالخجل من نفسه .. ورأى نظراتها الثابتة تتأمّله ولمح ابتسامة ساخرة تحوم حول شفتيها .. وانتهزت أوّل نكتة قالها ، فضحكت ضحكا متواصلا والقت برأسها الى الوراء .. وخيّل إليه أنها سيغمى عليها من الضحك فشعر بالغيظ لكنّه تظاهر بعدم الفهم وشاركها الضحك بلا مبالاة .

وتوقّفت عن الضحك فجأة ونظرت اليه ثم أُطرقت الى الأرض .. ولم يدرما الذي فعلته تلك الإطراقة .. لم يكن رآها من قبل وهي تطرق برأسها .. وظنّ أنها بدأت تضعف فاقترب منها وحاول أن يضمّها ويقبّلها ولكنّها تخلّصت منه ، ونظرت إليه فى جرأة وقالت له : هل تحبّني ؟ فاطرقت الى الأرض مرّة أخرى فى صمت فامسك رأسها وحاول أن يقبّلها واستطاع أن يضع شفتيه على شفتيها وقبّلها قبلة طويلة .. ثم ترك شفتيها

لحظة ونظر في عينيها قائلا : هل تحبينني ؟ فابتسمت وهي تقول : لا ·· ليس بعد · وشدّها من شعرها الطويل وأخذها بين ذراعيه وقاومته ·· لكنّه استطاع أن يضمّها الى صدره بقوّة وعنف ·· ولم يترك لها مجالاً حتى لتتنفّس ··· وسمعها تقول في عناد وهي تتملّص منه : هل تحبّني ؟ وكان شعوره في تلك اللحظة قد تغلب على تفكيره وعناده ، فخرجت من بين شفتيه كلمة أحبّك مع أنفاسه الساخنة اللاهثة فابتسمت وهمس لها قائلا : هل تحبينني ؟ فقالت : لا ·· ليس بعد · ولم يكن لديه ثمة قوة أو تفكير فاستسلم لها استسلاماً كاملاً

وأفاق بعد قليل ·· كيف شعر أنّه هو الذي استسلم لها ؟ وليست هي التي استسلمت له ؟ كيف يمكن لرجل أن يحسّ في مثل هذه اللحظة أنّه هو الذي يعطي نفسه للمرأة وليست هي التي تعطيه ؟ وأحسّ بمرارة في حلقه هي نفس المرارةالتي تشعر بها المرأة حين تدرك أنها استسلمت لرجل ·· ولرجل لا يحبّها ·

وأشعل سيجارة وجلس يدخّن في صمت ·· وجلست أمامه صامتة ··· لماذا لا تتكلّم هذه المرأة ؟ لماذا لاتثرثر ككلّ النساء في مثل هذا الموقف ؟

عيناها فقط تنظران اليه ·· في قوّة وكبرياء وعناد ··· كأنّها لم تكن بين ذراعيه منلحظة ·· كأنّ شيئاً لميحدث بينهما على الإطلاق، بل لعلّ نظرتها ازدادت قوّة وكبرياء وعناداً ·· وشعر برغبة في أن يصفعها ويقول لها أنت لست امرأة ·· أنت رجل ··· أنت تحتقرين أنوثتك ·· ولكن كيف ينطق بهذه الكذبة الهائلة وبهذه السرعة الكبيرة ؟ ··· ولا شكّ أنّها تفهم أن الرجل لا يتّهم المرأة هذا الاتهام وفي هذا الموقف بالذات ، إلاّ حين يشعر أمامها بالعجز أو حين يحسّ أنّها تحتقر رجولته ····

وانتهى من تدخين السيجارة ، ووقف ومدّ لها يده مصافحاً وصافحته وخرج مسرعاً كأنما يطارده شبح ··

ولم ينم ليلته بالرغم من الأقراص المنوّمة الشديدة ·· ظل

مؤرّقاً حتى الصباح . أيمكن له بعد هذا العمر الطويل وتلك الصولات والجولات فى عالم النساء وذلك الانتصار الساحق مع امرأةوأخرى. أيمكن له بعد كلّ هذا أن يشكّ فى رجولته ؟ أن يشك فى سحره ؟ أن يشكّ فى قوّته ؟

وانتشر نور الصبـاح في حجرته وهو يحلق فى السـقف يحاول أن يردّ على علامات الاستفهام الكثيرة التى بدأت تمزّق خلايا مخّه وتحفر لنفسها مكاناً عميقاً فى ذهنه ...

ونهض من فراشه يجرّ جسده الثقيل جرّاً .. ولمح التليفون .. وشعر برغبة قويّة فى أن يطلبها ... إنّه يريد أن يسمع صوتها مرة أخرى .. أن يحسّ فيه شيئـا من اللهفة .. شيئاً من الاهتمام يسرّي عنه ويخفّف من تلك اللوعة التى فى نفسه .. وأدار قرص التليفون عدّة مرّات وجـاءه صوتها الكسـول الناعس ، ليس فيه ذرّة اهتمام .. لكنّه كـذب أذنيه وحسّـه وذكرها بليلة الأمس فتمتمت بكلمات لم يسمعها .. وسألها فى لهفة : هل تحبّيننى ؟ فقالت وهى تتثاءب : لا ليس بعد .. وغاص قلبه فى قدميه ، وأحسّ أن الجرح الذي فى قلبه يتّسع ويزيد .. وأن اللوعة التي فى نفسه تشـتدّ وتفدح .. وأن علامات الاستفهام فى مخّه تغوص وتفور ...

وارتدي ملابسه في إعياء وذهب الى مكتبه .. وبداله كلّ شيء كئيباً مفرطاً فى الكآبة ... ولم يعد يتحمّس لشيء ... وجلس الى مكتبه لا يستطيع أن ينظر في ورقة من الأوراق .. وأخذ يختلس الىالتليفون نظرات متلهّفة حزينة ... وشعر برغبة عارمة في أن يطلبها مرة أخرى ... لابد أنّها استيقظت تماماًالآن وسوف يعود الىصوتهااللهفة ، والإهتمام .. لقدأصبح لايريد منها شيئاً على الإطلاق سوى أن تردّ اليه ثقته بنفسه .. ثقته برجولته ..

وأدار قرص التليفون .. وجاء صوتها هذه المرّة نشطاً مليئا بالنشاط،لكنه أحس أنّ هذا النشاط لايمتّ اليه بصلة فقال لها فى استجداء : أريد أن أراك الليلة ... لكنّها . اعتذرت فى أدب لانشغالها ببعض الأعمال ... ووضع السمّاعة وقلبه

يختنق من الألم ·· ما هـذا الذى يحـدث له ؟ إنّه هـو الذي يستجديها ويستعطفها وهي التى تهرب منه ·· لقد التفّ خيط العذاب الحريريّ حول عنقه هو وليس عنقها ···

ولم يعرف لماذاحدث ذلك ··· لم يتصوّر أبداً أن تكون هناك امـرأة مثله ·· فقد كانت هى الأخـرى لا تريده هـو بالذات ولكنّها كانت تريد أن تخضع رجولته المغرورة ···أن تشعر به وهـو ذليل جريح يتعثّر فى استسـلامه لهـا ، ويبكي ضعفه وهزيمته ·· أن تلفّ حول عنقه خيطها الحريرى وتشدّه وراءها ، كانت مثله تنشد الانتصار بأيّ شكل وبأيّ ثمن ···

من أجل المعرفة

العربة البيضاء الصغيرة تنطلق بسرعة على الشارع العريض الناعم وهي تستند برأسها على حافة النافذة ونسمة الليل الدافئة تتخلل شعرها وملابسها وتسري الى جسدها فتبعث فى روحها خدراً جديداً ترتخي معه نظراتها المتكسرة على صفحة النيل لتلتقط من حين الى حين صورة جانبية للأصابع العريضة التى تلتف حول عجلة القيادة فى قوة وحماس ، والعينان شبه الزرقاوين تتطلعان الى الأمامفى حدة تنم عن شوق عارم الى بلوغ نهاية الطريق ٠

وأخرجت رأسها من النافذة ليداعب الهواء الدافئ شعرها وبشرتها وسمعته يقول وهويخطف اليها نظرة متلهفة : سنصل بعد قليل ٠٠

قالها بزهو ٠٠٠ ذلك الزهو الذى يملأ الرجل حين يعتقد أنّ المرأة قد أحبّته وأنه قد ملكها ٠٠وحملت نسمة الليل

الرقيقة عن شفتيها ابتسامة ماكرة وطوحت بها بعيـــدا عن عينيه وقالت : الليل فى حلوان جميل ..

ورمقها بنظرة مشـــحونة بالشـــوق وقال : أنت أجمـــل من الليل ..

وهزّها الحنين الصادق فى عينيه فأطرقت رأسها فى خشوع واحترام ، ولمحت يده وهى تترك عجلة القيادة لتبحث عن يدها فأمسكت بها في حنان وعطف ..

وسمعته يقول وهو يضغط بقوة علي يدها : أحبّك.

وأغلقت شفتيها في صمت ..

لكنه سألها : هل تحبّيننى ؟ ..

فقالت وهى تقذف بنظراتها خارج النافذة :

ـ ألا ترى هذه الأنوار ؟

ونظر الى الأمام وقال : لقد وصلنا حلوان ..

●●●

أمسكت حقيبتها الصغيرة وسارت الى جواره يتقدّمهما صبيّ صغير ظلّ يسير فى طرقة طويلة متعرجة .. ثم وقف أمام باب عليه رقم وفتح الباب وانحنى فى أدب ينتظر دخولهما .

واصطدمت عيناها بالسرير الواحد الذىيتوسّط الحجرة ، لكنّهـــا تجاهلته وسارت الى النافذة وفتحتها وأطلّت منها على

الليل الســـاكن الرهيب تبرق فيــــه النجوم . وتنهّدت وهي تستنشق هواء الليل الدافىء وقالت :

ـ المنظر من هنا رائع !

وشعرت به يقف الى جوارها ويتطلّع معها الى الأفق البعيد .. لكنها استطاعت أن تضبط عينيه وهما تختلسان رغماً عنه نظرات خاطفة وجلة الى السرير .

وأسندت مرفقها الى النافذة وشردت نظراتها بعيدا وعادت بها الى القاهرة ·· الى حجرة مستطيلة ·· ومكتب صغير ·· وهو ·· هو يجلس أمامها ·· بين شفتيه كلمات متعددة المعاني وبين عينيه نظرات سحيقة الأغوار تسحق قوتها وغرورها وتجعلها تنكمش عند ركبتيه وتتكور ، وتدفن رأسها بين كفيه وتلهث في صمت بعاطفة عنيفة حبيسة لا تجد سبيلا الى الخلاص ·· حتى حينما يشدها إليه ويذيب كيانها بين ذراعيه وتظن أن عاطفتها قد ذابت هي الأخرى مع كيانها وتفرح بالخلاص ، ولكن ·· حين يبعد عنها ذراعيه تسترد كيانها وتسترد معه عاطفتها عنيفة كما كانت ·· حبيسة كما كانت ·· كأنما لم تفرج عن شيء منها ··

ويعود اليها الشوق ، ويعود اليها القلق ، ويعود اليها التساؤل الحائر بلا جواب :

لماذا هو بالذات ؟

لماذا لم يكن رجلا آخر ؟

وهل يمكن أن يكون رجلا آخر ؟

هل يمكن أن تعرف ؟!

●●●

ورن صوت الرجل في أذنيها فشدت نظراتها من الأفق البعيد اليه ، ورأته واقفاً الى جوارها ·· بين شفتيه كلمات متعددة المعاني ، وبين عينيه نظرات سحيقة الأغوار ولكنها لا تسحق شيئاً فيها ··· وحاولت أن تنكمش عند ركبتيه ، وحاولت أن تلهث بأية عاطفة فلم تلهث بشيء ··
وشدها اليه ··

ورأت ذراعيه القويتين تحيطان بها ، أكثر قوة من الذراعين الحبيبتين ، أقوى عضلات وأغزر شعراً ، ولكنهما لا تذيبان أي شيء فيها ··

●●●

العربة البيضاء الصغيرة تنطلق على الشارع العريض الناعم وهي تستند برأسها على حافة النافذة ونسمة النهار الدافئة تتخلل شعرها وملابسها وتسري الى جسدها فتبعث فى روحها حماساً جديداً تستيقظ معه نظراتها الناعسة على صفحة النيل وتسبقها الى القاهرة ·· الى الحجرة المستطيلة ·· والمكتب الصغير ·

وأخرجت رأسها من النافذة ليداعب الهواء الدافئ شعرها وبشرتها وسمعته يقول : أحبّك ··

قالها بزهو ·· ذلك الزهو الذى يملأ الرجل حين يعتقد أن المرأة قد أحبّته وأنّه قد ملكها ·

وحملت نسمة النهار الرقيقة عن شفتيها ابتسامة ساخرة وطوّحت بها بعيداً عن عينيه · ورمقها بنظرة مشحونة بالعاطفة ·· عنيفة كما كانت ·· حبيسة كما كانت ·· كأنه لم يفرّج عن شيء منها ··

وهزّها الحنين الصادق فى عينيه فأطرقت رأسها فى خشوع واحترام ولمحت يده وهى تترك عجلة القيادة لتبحث عن يدها فأمسكت بها فى حنان وعطف وسمعته يقول وهو يضغط بقوة على يدها :

ـ هل تحبّينني ؟

فقالت وهى تقذف بنظراتها خارج النافذة :

ـ ألا ترى هذه البيوت ؟

ونظر الى الأمام وقال :

ـ لقد وصلنا القاهرة ··

●●●

فى الحجرة المستطيلة ··· وعلى المكتب الصغير ··· هو يجلس أمامها ·· وبين عينيه نظرات سحيقة الأغوار تسحق قوّتها وغرورها فتنكمش عند ركبته وتتكوّر ، وتدفن رأسها بين

كفّيه وتلهث في صمت بعاطفة عنيفة حبيسة لا تجد سبيلا الى الخلاص ..

ويشدّها اليه ويذيب كيانها بين ذراعيه وتظنّ أن عاطفتها قد ذابت هي الأخرى .. وتفرح بالخلاص ، ولكن .. حين يبعد عنها ذراعيه تستردّ كيانها وتستردّ معه عاطفتها عنيفة كما كانت .. حبيسة كما كانت كأنما لم تفرّج عن شيء منها .. ويعود اليها الشوق ، ويعود اليها القلق ، ولكن لا يعود اليها التساؤل الحائر: لماذا هو بالذات؟

شرارة من الداخل

لم تكن المسافة التى تفصل بينه وبينها تزيد على طول ذراعه ، ولم يكن بالبيت أحد سواهما ، وعلى المنضدة الصغيرة زجاجة الخمر المعتقة ودورق الثلج الصغير .. وتاملها وهى تمسك كاسها فى يدها وتحوطه بأصابعها ثم تقربه الى شفتيها في هدوء ..

كانت صامتة .. لكن عينيها كانتا تعبران لحظة عن الفرح ولحظة عن الألم ، لحظة تتوهّج بالعاطفة المجنونة ، ولحظة تنطفىء بالعقل البارد ، لحظة تغرق فى حنان متدفّق ، ولحظة تجفّ فى تحدٍّ قاس .

وظلّ يتأمّلها وهى تشرب الكأس وراء الكأس حتى التهب خدّها بسخونة الخمر واتّقدت عيناها ببريق ينمّ عن فوران الأحاسيس .. وشعر برغبة عنيفة فى أن يمسك أصابعها الرفيعة ويضغط عليها بقوّة حتى تتكسّر بين أصابعه ويصيح بها قائلا : التحدّي في عينيك يرغمني على القسوة .. او أن ينتزع الكأس من بين أصابعها ويلقي بها من النافذة ويصرخ في

وجهها : ألايمكن أن تبادليني الحبّ بدون أن تفقدي الوعي ؟ ·· أو أن يجلس عند ركبتيهـا ويدفن رأسـه في صدرها ويبكي ويقول لها : حنان عينيك يبكيني ·

لكنّه لم يفعل شيئا ··· ظلّ يتأملها ساكناً ··· وسعادة خفيّة تدغدغ خلايا جسده وقلبه وعقله ·· وكلّ شيء خارج هذه الحجرة الصغيرة تافه ·· حتى فنّه ·· فنّه الكبير الذى انتصر على كل اهتمام في حياته ·· ولماذا لا يكون الفنّ تافهاً ؟ ألم يكن يكتب من أجـل تحقيـق شيء ··· شيء مثل هـذه اللحظة التي يعيشها الآن ·· الم يكتب سنين طويلة من أجل لحظة مثل هذه اللحظة ولم تستطع الكتابة أن تعطيها له مطلقا ؟ ··· كل إنسان خارج حدود هذه الإنسانة لا وجود له الآن ·· حتّى ابنته ··· ابنته الوحيدة الصغيرة التى انتصر حبّها على كلّ حب في حياته ··· ولماذا لا يتلاشى وجود ابنته ؟ ألم يكن يحبّها لأنها نتاج حبّ قديم وقد جاء الحبّ الجديد الذي يمحو القديم والذي يمكن أن يعطيه نتاجاً جديداً ؟

ونظر في عينيها الجسورتين ··· لم تفعل الخمر بجسارتها شيئاً ·· كأنّما لم تشرب قطرة خمر واحـدة ··· لولا تلك الحمرة الخفيفة التي شـابت بياض عينيها ، وتلك الومضات المجنونة التي تبرق فيهما من حين الى حين ··

وتأمّل شفتيها وهما تنفرجان في محاولة للكلام ··· وابتسم لها مشجّعاً ··· إنه يريد أن يسـمع منها شيـئاً وهي نصف واعية ·· وعقلها الصارم نصف نائم ·· ولكنّها لم تقل شيئاً ··· ابتسمت في صمت وعادت لتملأ كأسها من جديد ···

ولم يتحمّل ·· رأى يده ترتفع على الرغم منه وتمسك كأسها وتنتزعه من بين أصابعها ··· وقال وهـو يحتوي أصـابعها الساخنة بين أصابعه الباردة : كفى ! · ونظرت اليه في دهشة وقالت وهي واجمة : أنت الذي أحضرت زجاجة الخمر · تذكر فورا اللحظة التي وقف فيها أمام بائع الخمر متردّداً أياخذ معه زجاجة خمر ؟ لم يسبق له أن تردّد في شراء زجاجة قبل ذهابه

للقاء امرأة ·· ولكنه لا يريد أن يذهب اليها حاملاً خمراً ·· لماذا ؟ لعلّه شعر أنه لن يكون بحاجة الى فقدان وعيه ·· أو أنه سيفقد وعيه بلا خمر ··· أو أنه حين يجلس معها يصبح كلّ شيء تافهاً ··· حتى الخمر ·· حتى الخمر تفقد طعمها ومعناها وتأثيرها ··· ألم يشرب ، ولا يزال عقله متّقداً متنبّهاً لكل حركة من شفتيها ·· ولكلّ ومضة في عينيها ·· ألا يزال واعياً ؟ لم تخرج منه تلك الأحاسيس الدفينة التي يكبتها العقل وتحرّرها الخمر فينطلق يفعل ما يريد بلاتفكير · وسمعها تضحك ضحكة قصيرة وهي تقول : صدقتك حين قلت إنها علبة بسكويت · تصوّر غبائي ! ··· وابتسم في شيء من الحرج ·· لماذا ألبس زجاجة الخمر ثوباً تنكّرياً ووضعها في علبة بريئة من علب البسكويت ؟ لعلّه كان يريد شراء علبة بسكويت بدلاً منها ·· ولكن ماذا تقول المرأة حين يشتري لها الرجل علبة بسكويت ؟ أتفرح ببراءتها وسذاجتها أم تحزن لبراءتها وسذاجتها أيضا ؟

واقترب منها قليلا ·· وحاول أن ينطق بشيء، لكنه لم يقل شيئا ··· أيمكن أن تعبر كلمة الحبّ عن ذلك الزلزال الذي يرج عقله وقلبه وجسده ؟ وأطبق شفتيه في صمت وأطبق أصابعه على أصابعها في قوة ·· آه لو تلاشى عقله أمام لحظة الجنون واحتواها بين ذراعيه وظلّ يضغط عليها حتى تذوب ·· ولكنّه ظلّ متردّدا ··· لماذا هو متردّد ؟ ألا يجد في عينيها إجابة واضحة على السؤال الذي يصرخ في أعماقه :

ـ هل هي تحبّني ؟ ···

ولكن تيارات التعبير المتباينة تمرّ بعينيها دون أن يلتقط جواباً ··· نظرة الحنان تحرّك قلبه ·· ونظرة التحدّي تثير رجولته ··· الانوثة العارمة فيها. الى جانب تلك القوّة التي تكاد تشبه قوة الرجولة ؟ الأنوثة التي تشعره برغبة عنيفة في الالتصاق بها ·· والرجولة التي تشعره برغبة مثلها في الفرار منها ··· التناقض العجيب فيها ·· التناقض الساحر ··· سحر الحياة وسرّها ، وهذا الشعور العجيب ·· الشعور

المتناقض ·· رغبته في الالتصاق بها ورغبته في الفرار منها ·· يربطه بها ربطاً · هل هو ساحر مثلها ؟ هل يحتوي كيانه على التناقض ؟ هل يجمع مثلها بين رجولة قوية وأنوثة رقيقة ؟ ·· لم يقابل من قبل امرأة واحدة تجمع بين هذا التنـاقض ··· كانت المرأة إمّا أنوثة يرغب في الاتصال بها وإما رجولته يرغب في الفرار منها ··· ولكن ان يرغب في الالتصاق والفرار في نفس اللحظة وبنفس القوّة ؟ هذا هو الصراع الرهيب الذى يولد في أعماقه شرارة التردّد ··· شرارة العقل الذي لا يغيب ··· شرارة العاطفة التي لا تهدأ ··

وابتسم في إشفاق على نفسه وهو يحترق من الداخل بشرارة غريبة تضيع عليه فرصة الاستمتاع باللحظة التى يعيشها ·· لم يحترق من قبل بشـرارة داخلية ·· كـان يحس الشرارة خارجه وكان يطفئها بيديه أو شفتيه أو ذراعيه ·· ولكن كيف تصل أصابعه الى تلك الشرارة المشتعلة في داخله ؟

لاشيء سوى أن يعيش معها الى الأبد ··· أن يتزوّجها ··· أن يقترن كيانه بكيانها ·· وسمع نفسه يقول لها لنتزوَّجْ !

ورآها تعتدل في جلستها ودموع كالندى تبلّل عينيها وقالت وهي حزينة : وزوجتك ؟ ··

آه ·· تذكّر زوجته ·· وابنته ·· ولكن ليس لأحد وجود الآن في عقله وقلبه ···

وقال في إصرار : اطلّقها ··

واعتدلت أكثر في جلستها ··· وبدأت تتكلّم ··· وتكلّمت كلاماً نبيلا عاقلا ·· ولكن ما أقبح النبل في لحظة الحبّ ! وما أقبح العقل في لحظة الجنون ! وسمعها تقول : لا تطلّق زوجتك من أجلي ·· ولا تفرّق بين ام ابنتك وأبيها ·

وشعر برغبة في أن يردّ على نبلها بصفعة عنيفة على وجهها تخلع عن رأسها ذلك العقل القبيح ·· ذلك الكذب ··· ذلك النفاق ·· أيمكن لهـا أن تكـون صـادقة اذا كانت تحبّني ؟

أليست العاطفة طوفاناً هائلا من الصـــدق والأنانية والجنون. يجرف فى تياره كلّ ادّعاء وكلّ نبل وكلّ عقل ؟!

وكبح جماح غضبه واغتصب ابتسامة امتنان وتقدير وقال : أنت انسانة نبيلة عظيمة .

ونهض فىهدوء وارتدىسترته وقالفى أدبورقة : سأذهب .

نظـرت اليه في دهشـــة .. سيذهب ؟ الى اين ؟ وبدا لها خروجه من بيتها شيئاً عجيباً ... لم يكن ضيفا وانتهت مدّة زيارته .. كان .. كان رجلها . رجل حياتها .. زوجها .. .. ابنها .. وأباها .. وبيتها هو بيته .. أيخرج من بيته ؟ والى من يذهب ؟ وشعرت برغبة عنيفة فى أن تحول بينه وبين الخروج .. أن يتلاشى عقلها أمام لحظة الجنون .. أن تطفئ شرارة التردّد التى تشتغل داخلها شرارة الحب .. ولـــكن الشرارة كانت داخلها .. وأصابعها لا يمكن أن تصل اليها ..

وأخفت دهشتها تحت ابتسامة نبيلة مهذبة .. وصافحها فى أدب شديد وخرج .

قلبي الذي عصيته

عيناي مفتوحتان لاتريان ، والظلام كثيف مخيف . والطريق ضيّق حارّ .. وأنفاسي بطيئة مخنوقة .. وجسدي ثقيل .. مشلول .

أيمكن أن تكون هناك تعاسة أكثر من هذه التعاسة ؟
أيمكن أن تبدو الحياة كئيبة كهذه الكآبة ؟

حين يفقد المرء بصره .. مع أنّ له عينين .. حين يشتدّ الظلام في وسط النهار ؟!

كان أحد الملايين الذين تمرّ وجوههم أمامي فلا أكاد أذكر منها شيئاً سوى أنّها آدمية .

لكنه اراد أن يشدّ عينيّ الشاردتين اليه .. أراد .. ولم يكن يملك شيئاً من الإنسان إلا إرادته ..

واستقرّت عيناي عليه لحظة ·

أنفه منخفض قصير يوحي إليّ بأنه شرّير·· وشفتاه رفيعتان مقوّستان الى أعلى كحاجب امرأة شرّيرة ·· وعيناه قاسيتان يرتجّ صغارهما الباهت الصغير فى البياض الكبير كما يرتجّ الصفار داخل البيضة العفنة ··

وأشحت بوجهي عنه لكنّه استدار وواجهني ··

تركت له المكان فتبعني كالظلّ ·· وركع على ركبتيه وبلّلت دموعه أرضي واعترف لي بالحبّ العملاق ··

لم يصدّقه قلبي ونفر منه ·· لكنّ عقلي صدّقه ·· هو رجل ··· غنيّ ناجح ·· مرموق ·

كان قلبي يحتقر عقلي ·· يحتقر مفاهيمه وأساليبه ·· يحتقر أرقامه وموازينه وكشوف حساباته ·· ولم يكن لعقلي حول ولا قوة أمام جبروت قلبي ·· فيتكوّر كالطفل اليتيم في جمجمته الضيّقة المظلمة يجترّ هزيمته في صمت منتظراً المأساة ··

كنت أتبع قلبي دائما ·· وكنت أحزن ·· وأشقى ·· وأفلس ··· وأجوع ، ولكنّي لم أفكر مرّة واحدة فى الخروج على قلبي ··

لماذا ؟! لا أدري ··

ولكني صمّمت على أن أخرج عليه مع هذا الرجل · ولأجرب عقلي هذه المرّة ··

● ● ●

جلست أمامه أحاول أن أنظر الى صفحة النيل العميقة بدلا من عينيه الباهتتين الضحلتين ·· وأحاول أن أجد فى كلماته اللّزجة المتكلّفة الخالية من الفنّ والذكاء شيئاً ذا معنى ··

كان يتحدّث عن التجارة ·· وعن العرض والطلب · وكيف

يصطاد الزبون ليعطيه أبخس شيء بأغلى ثمن ·· ويسمّي ذلك فنّاً وذكاء ··

●●●

أحسست بقلبي يغلي بين ضلوعي اشمئزازاً منه ·· لكنّ عقلي كان يبادر فيذكّرني بجاهه وماله ونجاحه ··

فلأروّضْ قلبي على احترام فنّ التجارة ··

جلست الى جواره في عربته الوثيرة الناعمة وأغمضت عيني لأغيب مع أحلام عقلي ··

ما أجمل الثراء ! ما أمتع أن أركب عربة فاخرة فارهة كالطائرة تسبح بي في شوارع القاهرة ! ·· بل ما أمتع أن أمتلك هذه العربة وأمتلك صاحبها أيضاً ! ··

وتقزّز قلبي من أحلام عقلي ··

أنا ؟ أنا أفكّر في الامتلاك ؟ في الأخذ ؟ أنا التي كنت أعطي وأعطي ·· وكانت سعادتي هي أن أعطي وأعطي ؟ ··

ولكن ماذا فعل لي العطاء ؟

كنت أحزن ·· وأشقى ·· وأفلس · وأجوع ·· فلأجرّب الأخذ هذه المرّة ·· ولأعلّم نفسي أن تأخذ وتأخذ ··

●●●

رأيته يقترب منّي وينظر اليّ بعينيه المرجوجتين المائعتين وأمسك يدي في يديه فانتفض قلبي حانقاً غاضباً ·· لكنّ عقلي تصدّى له زاجراً ناهراً ·· فسكت ··

واقترب مني أكثر وأكثر ورأيت شفتيه الرفيعتين المقوّستين الى أعلى كحاجب امرأة عاهر تقتربان من شفتيّ ·· وقفز قلبي نافراً مشمئزّاً،لكنّ عقلي ذكّرني بمواهبه ·· إنّه ثريّ ·· وسوف يصبح ثراؤه ثرائي ··

إنّه غبيّ ·· وسوف يريحني من غرور الأذكياء · لم أحاول

أن أدقّق النظر الى شفتيه أو عينيه . لم أحاول أن أدقّق الفهم لحديثه أو حركاته ..

واتّهمت قلبي بالغباء والسذاجة .. هذا القلب الذي يؤمن بأشياء تافهة لا منطق فيها ولا معنى ..

عينان عميقتان ! .. أفكار ذكية ! .. إحساس مرهف ! . نفس فنّانة ! قيمٌ روحيّة ! ..

أشياء تافهة حقّاً .. مجرّد أوهام يحسّ بها قلبي الساذج بلا واقع لها على الأرض وبلا مبررات وبلا مقاييس إلاّ مقاييس إحساسي المبهم الغاشم !

أغمضت عينيّ .. وأغلقت أذني وأوصدت صمّامات قلبي .. وناولته شفتيّ ..

وقال بصوت ضحل : أتحبّينني ؟

كاد قلبي يصرخ ويقول:لا لا . لكنّ عقلي قفز أمامه وقال : نعم !

وقال بصوت قبيح : أتتزوّجينني ؟

حاول قلبي أن يولول ويقول : أبداً أبداً .. لكنّ عقلي سدّ عليه الطريق وقال : نعم .

●●●

تربّع عقلي على عرشه في إنتصار وزهو يتأمل الجدران الشاهقة المنقوشة ويتشمّم الأطباق الشهيّة المتنوّعة . ويتطلّع الى الملابس الفاخرة المتعدّدة .. ويتحسّس الفراش الوثير الثمين .. ويطلّ على العربة الطويلة القابعة أمام القصر في خشوع وانتظار ..

نعم .. هذه هي الحياة .. الحياة التي تستحقّ أن تعيشيها .. أتلقين بكلّ هذه الاشياء الثمينة الغالية النادرة من أجل أوهام ترتع في قلبك ؟!

تعلّمي أن تحبّي هذه الحياة ‥ وأن تحبّي هـذا النعيم ‥ وهذا الترف ‥ عوّدي حواسّك على هذه المتع الجديدة ‥

ماذا كان يرضيك في ذلك الحرمان الذى كنت تعيشـين فيه ؟! تفضّلين بضع كلمات ضائعة في الهواء على أكلة دسمة لذيذة ‥ تفضّلين رجفـة القلب الوهميّة على رجفـة الجسد المحسوسة ‥ تعلمي أن تعشقي جسدك ، وتُشبعي حواسّك .

●●●

جلست الى المائدة الكبيرة الشـهيّة ‥ وأكلت وأكلت ‥

فتحت صوان الملابس الفاخرة ‥ ولبست ولبست ‥ ركبت العربة الطويلة الفارهة ‥ وسـبحت وسـبحت ‥ تمدّدت على الفراش الناعم الوثير ‥ ونمت ونمت ‥ لفّتني دوّامـة رهيبة ‥ لها دويّ كئيب شديد صمّ أذنيّ ‥ وسحب الضوء من عينيّ ‥ وأوصد منافذ إحساسي وإدراكي ‥ أحسسـت أنّني نوع غريب من البهائم يمشي عـلى قدمين ‥ نظرت الى نفسي في المرآة فرأيت وجهاً غريباً عـليّ ‥ مليئـاً باللّحم والأصبـاغ فارغاً من الوعي والتعبـير ‥ وعينـين مطفأتين جاحظتين كعينيْ الضفدع ‥ وشفتين يابستين لا تقويان عـلى الابتسام ‥

لم أعثر في وجهي على ملامح وجهي ‥ ولم أعثر في أغـوار نفسي على نفسي ‥ رأيت نفساً أخـرى مُتخمـة مترهّلة ‥ وأحسست جسداً سميكاً غليظاً ليست فيه ملامح جسدي ‥ وكأنّمـا ضاع منّي كلّ شيء ‥ ضـاع منّي نور عيني ‥ الابتسامة الطبيعية السهلة استعصت على شفتي ‥

لا شيء يواسيني ‥ لا شيء يبعث فيّ الأمـل ‥ لا شيء يثيرني ‥ لا شيء يحمّسني ‥

ذهب قلبي وذهب معه إيماني بوجودي وحياتي ‥

ورأيته يقبل نحوي ‥

من هذا الرجـل الغريب الكثيب الذي يقتحم على غـــرفة نومي ؟ ··
وسمعت صوته الضّحل القبيح يقول :

ـ كسبت اليوم صفقة جديدة ·· استأصلت المصران الأعور بمائة جنيه ··

ـ كنت تجرى هذه العملية بخمسين جنيها فقط ·· لمـــاذا ضاعفت الثمن ؟
ـ كان المصران غليظاً ··

نظرت اليه ·· فرأيت له أنفاً منخفضاً قصيراً يوحي إليّ بأنه منحطّ ·· وشفتين رفيعتين مقوّستين الى أعلى كحاجبيء امـرأة رخيصة ·· وعينين قاسيتين مرجوجتين يرتجّ صفارهما الباهت الصغير فى البياض الكبير كما يرتجّ الصفار داخل البيضـــة العفنة ··

لماذا لم أصدّق قلبي ؟

قلبي صادق أمين رفيع ·· وعقلي حقير خسيس وضيع ··· ورشقت عقلي بنظرة احتقار بالغـــة وهو يحتمي منّي داخـــل جمجمته الضّيقة المظلمة يجترّ انتصاره القبيح البشع ·· ولكن لاتظن أنك انتصرت ·· لا تظنّ أنك تربّعت على عرشي ··

سأهوي بك الى أسفل !

●●●

تعمّـدت أن أذلّ عقـــلي فتركت كلّ شيء ·· تركت القصر والسيّارة ·· تركت المائدة الشهيّة والفراش الوثير ·· تركت حتى ملابسى وأحذيتي ونقودى وأوراقي وبطاقتي العائلية ··
وقال لي بصوته الجشع : الى أين ؟ ··

ـ الى بيتي ··

ـ وهذا ؟

ــ ليس بيتي .
ــ ماذا حدث لعقلك ؟ ..
ــ عزلته ..

●●●

عيناي مفتوحتان لا تريان .. والظــلام كثيف سخيف .. والطريق ضيّق حارّ .. وأنفاسي بطيئة مخنوقة .. وجســدي ثقيل مشلول .. أيمكن أن تكون هناك تعاسة أكثر من هــذه التعاسة ؟

حين يفقد المرء بصره مع أنّ له عينين .. حين يشتدّ الظلام في وسط النهار ؟ ..

وأنا أسير كالتائهة .. أبحث عن شيء عزيز غالٍ في أغوار نفسي .. أحاول أن أعثر عليه . لأعيده الى عرشه .. ولأتبعه وأتبعه وأتبعه .. ولأحزن .. ولأشـــقى .. ولأفلس .. ولأجوع .. ولكنّ سيكون هناك شيء ما يواسيني .. شيء ما يبعث فيّ الأمل .. يصنع طيفاً من السعادة يلون صفحة الحياة أمامي بالرغم من كلّ شيء .. يجعل الابتسامة الطبيعيّة سهلة على شفتي .. يشعل الضوء في عيني . يجعل إيماني بوجودي وحياتي لا يتزعزع .. لا يموت ..

يجعلني أحيا .. وأحتمل الحياة ..

أنا أسير .. وأنا أبحث عنه .. ترى .. هل أعثر عليه مرّة أخرى ؟ .. لا أدري .. لابدّ ! .

عم عثمان

كانت عيناها تتعلّقان بشريط الضوء الرفيع الذي يمتدّ من الهلال المقوّس الناحل ويتسلّل كنصل السيف فى ظلمة السماء الداكنة ، ثم لا يلبث أن ينكسر بين كتل الأشجار السوداء الى قروش فضّيّة لامعة تنساب متفرّقة من بين غصونها وأوراقها المتشعّبة ، ثم لا تلبث أن تتماسك وتتجمّع مرة أخرى لتصبح شريطاً رفيعاً يكاد يتهاوى فى الجوّ لبضع خطوات حتى يسقط فى النيل ويتدحرج على صفحة الماء المتعرّجة مستسلماً معها لحركات الريح العابثة .. وكأنما يلذّ له ملمس الماء البارد فيغرق نفسه فى النيل عمداً ويستحمّ فيه كقرموط سمك ناصع البياض يتلوّى نشوان مع نسمات ليل القاهرة الدافئ .

كانت عيناها نصف المغمضتين تلوذان من الخلود الى النوم من فرط السعادة والهدوء بذلك الشريط الرفيع من الضوء تتبعانه من أول طريقه فى السماء الى آخر مطافه غريقاً طروباً .. وشعرت ببرودة الماء من حول جسمها الساخن فشعرت

بسعادة جديدة وتمنّت لو خلعت ملابسها وألقت بنفسها فى أحضان الماء ..

لكنّهـا ظلّت على كرسيّها جالسة تكتفي بمتعة النظروالتأمّل .. وفجأة شلّت نظراتها،كأنما سحبت منها كهرباء الرؤية،على صوت دقّات ساعة الجامعة تأتيها من بعيد،وسرت كهرباء السمع في أذنيها تعدّ الدقات دقّة دقّة .. والأمل والخوف معاً يصوّران لها أنّ الصوت سينقطع بعد تلك الدقّة الأخيرة،لكن دقّة أخرى تطرق أذنيها فيكاد يغوص قلبها في قدميها ... وظلّ صوت السـاعة يهدر فى ظـلام الليـل كضرغام جائع حتى أكمل اثنتي عشرة دقّة بالتّمام والكمال ..

وهنا أفاقت من نشوتها تماماً واستردّت بصرها ورأت الحقيقة ماثلة أمامها .. الحقيقة المرّة ... ورأت زجاجة البيرة الفارغة وبجوارها كوبان كبيران فارغان من تحتهما منضدة خشبيّة حقيرة ورأت أصابع يده الرفيعة تعبث بطرف المنضدة ولم تكن تعرف أن أصابعه رفيعة الى ذلك الحدّ ... وهبطت نظراتها الى قدميه ورأت حذاءه الأسود واستغربت منظره .. وصعدت نظراتهـا الى وجهه ورأت عينيه اللامعتين تنظران اليها فتذكّرته .. نعم إنه هو .. ولكن لماذا يبدو حذاؤه وكأنّه حذاء رجل آخر ؟ .. ولماذا تبدو أصابع يديه نحيلة رفيعة كأنّها ليست أصابعه ؟

وسمعت صوته الدافئ يقول :

ـ هل أخافتك دقّات الساعة الى هذا الحدّ ؟ ماذا يضايقك هل تأخّرت ؟

وارتعد جسدها الصغير وهى تقول :

ـ جدّاً . لم أتصوّر أنّ الوقت يمضي بهذه السرعة . كنت أظنّ أنّها العاشرة فقط .

وارتسمت على وجهه ابتسامة الرضا الذى يفيض بالرجل حين صارحته بالحبّ الذى يفقدها الإحساس بالزمن وقال يطمئنها :

ـ إنّ الأسرة سافرت الى الاسكندرية وليس معك بالبيت

أحد إلّا الخادمة العجوز، ولابدّ أنّها نامت من الساعة التاسعة ..
إن النساء العجائز لا يجدن شيئاً مثل النوم العميق ..

وقالت بصوت فاتر : هذا صحيح ، ولكن ...

قال : ولكن ماذا ؟

وقفزت الى رأسها فجأة صورة عمّ عثمان بشاربه الكثّ الطويل كأنّه حيوان برّيّ يرقد على شفته العليا ، ووجهه الأسود اللامع وشفتاه الغليظتان الزرقاوان تنقلبان الى أعلى والى أسفل لتبينا عن أسنانه البيضاء الكبيرة ..

وانتفض جسمها الصغير وهي تقول بصوت ضعيف : ولكن عم عثمان يسهر طول الليل على دكّته كأنّه لا ينام كبقيّة الناس ، وسوف يراني حين أعود بعد منتصف الليل .

ورنّ صوت قهقهة في الليل الساكن وألقى برأسه الى الوراء في حركة تنمّ عن الطمأنينة وخلوّ البال : عم عثمان ؟ وما شأن عمّ عثمان بك ؟ إنّه بوّاب العمارة فقط ولا دخل له على الإطلاق في حياتك ، تعودين أوّل اللّيل أو آخره، هذا من شأنك أنت . إن وظيفة البوّاب هى أن يراقب الغرباء عن العمارة لا أن يراقب السكّان .

وقالت في أسى :

ــ بل إنّه يراقب السكّان فحسب .

ــ ها ها ها .. لم أكن أتصوّر أنّك تخافين من عمّ عثمان الى ذلك الحد .

قالت في تمرّد :
ــ إنّني لا أخاف منه . ولكني لا أحبّ أن يظنّ بي سوءا ..
إنّه من أقاصي الصعيد حيث تلبس المرأة العباءة .

قال :

صيغتها الأولى، وإنما نريد أن نلخص مسرحية «إيزيس» لتوفيق الحكيم الذي اعتمد على الأسطورة القديمة، ولكنه حور فيها لتصلح إطاراً للفكرة التي يعالجها فيها.

ففي مسرحية «إيزيس» للحكيم نرى «طيفون» المحتال يغدر بأخيه «أوزوريس» الملك الطيب، بأن يقيم وليمة يدعو إليها كثيراً من الأعيان من بينهم أخوه «أوزوريس». وفي اثناء الوليمة يحضر صندوقاً كبيراً مرصعاً بالجواهر واللآلئ، ويظهر استعداده لأن يهدي هذا الصندوق لمن يكون على قدر قامته تماماً. ويتقدم الحاضرون بالتتالي ليجربوا الصندوق، فلا يوفق أي واحد منهم، وعندما يتقدم «أوزوريس» ويرقد فيه يسرع «طيفون» وأصحابه المتآمرون فيغلقون الصندوق إغلاقاً محكماً، ثم يلقونه في وادي النيل ليحمله إلى البحر، ولكن بعض الملاحين يرون الصندوق يطفو على سطح الماء فينتشلونه ثم يبيعونه إلى ملك «بيلوس»، وهي من مدن الشام.

ويمكث «أوزوريس» لدى ملك «بيلوس» مدة طويلة يحظى أثناءها باحترام كبير من الملك ومن الشعب الذي تعلم منه كثيراً من المهارات المتعلقة بالزراعة، وكان «أوزوريس» يزعم للناس في «بيلوس» أنه عبد لأحد الأغنياء، وأن سيده هو الذي وضعه في الصندوق وألقى به في النيل.

ومنذ اللحظة التي اختفى فيها «أوزوريس» نرى زوجته «إيزيس» تعمل المستحيل في سبيل البحث عن زوجها المفقود، وتلجأ إلى كل الوسائل التي يمكن أن تعيده إليها. فتلجأ إلى السحر والرقية، وترد على لائميها بقولها: «عندما نفقد شيئاً عزيزاً فإنا نلتمس المعجزة حيث تكون»، وتلجأ إلى الضرب في مناكب القرى لتلتقط أنباء الصندوق، فتعلم بعد مشقة كبيرة أنه بيع إلى ملك «بيلوس» وتشد الرحال إلى الشام حيث تلتقي بزوجها المحبوب الذي يكشف حينئذ عن شخصيته الحقيقية، وتعود به إلى وطنها، حيث يواصل خدمة الشعب متنكراً تحت اسم «الرجل الأخضر» الذي أطلق عليه اعترافاً بجميله وبركته، وحيث تضع «ايزيس» ابنهما «حورس». ولكن «طيفون» الشرير يعلم بعودة أخيه، فيرسل أعوانه الذين يلقون القبض

ـ ماهو الحلّ اذن ؟ هل أسبقك اليه وأطلق عليه الرصاص قبل وصولك ؟

وضحك ضحكة مرحة صافية كأنما ليس هناك معضلة ليس لها حل في نظرها سوى ان يموت عم عثمان فعلا قبل ان تصل الى باب العمارة،ولكنه يموت قضاء وقدرا وليس قتيلا ٠

وأخذت تفكّر في الأمراض التي يمكن أن تداهم الإنسان وتقضي عليه في الحال ٠ ولم تكن تعرف شيئاً عن الطبّ والأمراض ولكنّها سمعت عن أناس يموتون بالسكتة القلبية في ثوان ٠ وقالت لنفسها :

آه ٠ لو كانت تصيبه السكتة القلبيّة الآن فيرقد ويغمض عينيه الحادّتين الناريّتين كفوّهات البنادق ٠

ولكنّ صورة أطفاله الثلاثة ارتسمت في خيالها وهم جالسون الى جواره على الدكّة الخشبية يحملقون في الداخل والخارج بعيون بريئة جائعة مسكينة ٠٠

لا ٠٠ إنّها ليست بهذه القسوة ٠٠ لا داعي للسكتة القلبيّة القاتلة ٠٠ لماذا لاتمرض عيناه فيربطهما بأربطة ثقلية من الشاش فلا يرى بهما أحداً؟٠٠ ولكن كيف تمرض عيناه بتلك السرعة؟ لقد رأته وهي خارجة من العمارة منذ ساعات قليلة ينظر كالصقر هنا وهناك وعيناه تقدحان شرراً ٠٠

لا شيء إذن غير السكتة القلبية ٠٠٠ وسوف تتبرّع لأطفاله بجزء من طعامها كلّ شهر ٠

آه ٠٠ لماذا تراودها تلك الأفكار السوداء ٠٠ وانّ الوقت يمرّ والليل يرتحل اكثر وأكثر ٠ ونظرت في ساعتها وقالت له في ذعر :

ـ ان الساعة تقترب من الواحدة،ماذا أفعل ؟ أريد أن أذهب الى البيت ٠

وقال باسماً :

ـ سآتي معك لأوصلك .

قالت :

ـ لا .. سيراك عمّ عثمان . إنه سيظنّ حتماً أنّني كنت مع رجل،ولكن هذا أفضـــل من ان ينقلب ظنه يقيناً ويرى الرجل بعيني رأسه ..

وضحك ضحكة طلقة ونظرت اليه وهي تقول : أنك لا تحسّ ولا تشاركني مشكلتي الفظيعة . إنّك تضحك من قلب خليّ . طبعاً أنت رجل تعـــود الى بيتك في أيّ وقت من الليل رافعاً رأسك في تية وكبرياء ويقف لك البواب احتراماً لمغامراتك مع النساء ..

وقال في دهشة :

ـ إنّني لا أصدّق أن يكون عمّ عثمان هـو بطل مشـــكلتك الفظيعة هذه ! كأنّك لم تتعلمي وتؤمني بحقّك في ممارســـة الحياة الحرّة فتصنعي لنفسك قيوداً وهمية تقيّدين بها نفسك دون داع .

قالت :

ـ إنّك لا تستطيع أن تحكم لأنّك لم تكن امرأة أبداً ..

إنّ عمّ عثمان ليس هو عمّ عثمان وحده وإنّما هو المجتمع كلّه الذي أعيش فيه . إنّ المجتمع يحـكم عليّ من خلال رأس عم عثمان الفارغ المعمّم وعينيه اللامعتين كعينيّ الثعبان . إنّهـــا ليست مشـــكلة عمّ عثمان وحده التي تقلقني،إنّها مشـــكلة المجتمع كلّه ..

وشـــعرت بموجات من التمرّد تعصف بكيانها الصـــغير ، ولمعت عيناها فجأة ببريق العصيان والجموح وقالت :

ـ ولكن يجب عليّ ألاّ أعبأ بشيء.أنا حرّة في حياتي الخاصة مثلك . لقد نلت الليسانس كما نلته أنت،وأشـــتغل كمـــا تشتغل أنت ، وأستلم ماهيّـــة مساوية لماهيّتك . يجب أن أمارس حرّيتي كما تمارسها أنت ..

قال :

ـ هـذا ما يجب أن تفعليه كامـرأة قـوية لها شـخصيتها واستقلالها ٠

قالت :

ـ سأفعل ٠ والآن هل ستوصلني الى باب العمارة ؟

قال :

ـ إذا شئت ٠

وسارا في الطريق المظلم الخـالي من النـاس وقد بدا أكثر اتساعا وأكثر نظافة ٠٠ وأحست باصابعه تلتف حول يديها في قوة وصدق،فهدأت نفسها واسـتكانت تحت ذراعيه وسـارت بخطى بطيئة ناعسة،كأنها في حلم لا تريد أن تصحو منه ٠٠

ولكنها سرعان ماتيقظت حين لمحت العمارة التي تسكن فيها من بعيد،وخفق قلبها وتسربت منها القوة التي أحست بها منذ قليل ونظرت الى ساعتها ٠٠ كانت الثانية صباحاً،فقالت في صوت متخاذل :

ـ أظن من الأفضل ألا يراك عم عثمان معي في ذلك الوقت المتأخر ٠٠

وقال :

ـ ولكنك صممت منذ قليل على ممارسة حريتك ٠

قالت :

ـ نعم ٠ ولكن لا داعي لذلك الآن،يمكنني أن أمارسها من الغد ٠

وضحك ضحكة خافتة حتي لا يرن صداها في سكون الليل الهاجع،وضغط على يدها وتمنى لها التوفيق ووعدها باللقاء في الغد ثم انصرف ٠

وسارت وحدها في وجل تشد عضلات وجهها وجسـمها

وتشحذ أسلحتها كلّها لمواجهة نظرة عم عثمان الناريّة المتشكّكة .. ورفعت رأسها في كبرياء مصطنعة تحاول ان تخفي بها قوّتها الهاربة ..

ووصلت الى باب العمارة ، وسبقتها عيناها المهزوزتان الى مكان دكّة عمّ عثمان بجوار الباب .. ورأت وهي تبتلع أنفاسها كتلة من الملابس البيضاء ..

وساورها شعور غامض بأنه قد فارق الحياة،لكنّها لم تدقّق النظر في الكتلة البشرية لترى اذا ما كان يصدر منها أيّ حركة تشير الى الحياة من قريب او بعيد،فلم يكن يهمّها في تلك اللحظة أن يكون حياً أو ميتاً .

ومشت بجوار الدكّة رافعة رأسها في قوّة وكبرياء ونظرت شزراً الى الكتلة الراقدة،وقالت لنفسها في سخرية : ماكان أتفه تفكيري ! .. أكنت أجلس بجوار النيل الساحر ومعي الرجل الذي أحبّه ثم أقضي الوقت وأنا أتخيّل صورة عمّ عثمان.ما كان أجهلني ! أضيع اللحظات الجميلة السعيدة وأنا أخاف من شبح تلك الكتلة الغائبة عن الوعي،ذلك البوّاب الذى آمره فيطيع ثم أعطيه أجره بضعة قروش ؟

وأعطت ظهرها للدكّة الخشبية وسارت نحو السلم سعيدة بتلك القوة التي تحسّ بها .. وسمعت من خلف ظهرها صوت شخير غليظ خافت .. وتوقّفت عن المسير لحظة ثم استدارت خلفها ورأت عم عثمان يغطّ في النوم العميق على الدكّة .. ومصمصت شفتيها في إشفاق وهي تقول لنفسها : مسكين عمّ عثمان،إنّه يرقد في الشارع بعد المجهود الطويل الذى يقوم به طول النهار وجزءاً من الليل .

وصعدت السلّم بخطى ثقيلة وهي تسأل نفسها في حيرة: كيف يتحوّل شعورها في لحظة من الخوف من عمّ عثمان الى الشفقة عليه ؟.. وزادها شعور الشفقة إحساساً بقوّتها وكبريائها،ووضعت المفتاح في الباب ودخلت بيتها وخلعت ملابسها واستلقت على سريرها وهي تبتسم لنفسها في سعادة وراحة بال .

ابتسامة

صحوت من نومي فوجدت الحزن يملأ قلبي ونفسي ، ويجعلني أشعر أنّ جسدي ثقيل ·· ثقيل كأنّه مصنوع من الحديد ·· لابدّ له من قاطرة تجرّه من فوق السرير الى الأرض ·· وأخذت أقلّب في رأسي وقلبي عن سبب هذا الحزن الكبير ، فلم أعثر على شيء ·· حتّى رأسي وقلبي لم يكن لهما وجود في تلك اللحظة ·

وأحسست أنّني أكره كلّ شيء في حياتي ·· عملي وفنّي وأمومتي وبنوّتي وحبّي وصداقتي ·· كلّ شيء حتى نفسي ووجودي ·· وأخذت أتأمّل أطرافي الممدودة في الفراش كلّها مشلولة ، فشعرت بموجة عارمة من الاشمئزاز من ذراعيّ وساقيّ ·· كأنما هي أطراف صناعية ·· وخيّل إليّ لحظة أنّ عقلي قد نسي تماماً كيف يحرّك هذه الأطراف ·· وأنّها لن تتحرّك أبداً ·· أبداً ·

وخفق قلبي من الرّعب خفقة كبيرة قويّة سحبت الدم من رأسي وقدميّ ، وصبّته جميعاً في صدري فالتهب من سخونة الدم

وأصبح كبركان مغلق على جمر من نار ··· ووجدتني أقفز من السرير دفعة واحدة كأنما مسّ جسـدي سـلك كهربيّ عنيف ووقفت عـلى الأرض ·· وانتصبت واقفة عـلى قدمي ورحت أهزّهما بعنف ، لأتأكّد من أنّهما يعملان كما كانا كلّ يوم ·

ومشيت في خطوات وجلة الى صوان الملابس ·· وارتديت آقدم ملابس عندي · ومشّطت شعري بلا عناية ونظـرت في عينيّ ·· ولم تمتدّ يدي الى القلم الاسود لأرسم به فوق رموشي ذلك الخطّ الأسود الذي أرسمه كلّ يوم ·· وأمسكت حقيبتي في يدي وخرجت دون أن أشرب فنجان الشـاي الذي أشربه كلّ صباح وسرت في الشارع ·· وقادتني قدماي الى محطـة الاتوبيس كما تقود الحمار أرجله من الدار الى الحقل ··

وجاء الاوتوبيس منتفخاً بالناس كالعادة ، واسـتطعت أن أصعد اليه وأدخل فيه ·· كيف ؟ لا أدرى ·· ولكني وجدتني فجأة داخل أتون فظيـع من الأنفاس السـاخنة الكئيبة ·· بعضها دخان ·· وبعضها مرض ·· وبعضها بصل ·· ولم تكن بى رغبة فى الحياة أية رغبة لأهرب كعادتى الى جوار نافذة من النوافذ وأخرج رأسي منها ·· كان الحزن الغامض الذى أذاب ارادتي وفتّت عقلي ونفسى قد جعلني أقف حيثما وقفت غـير عابئة بمـا حولى ·· غـير مكترثة بتلك الأذرع اللزجة التى تحيطنى من كل جانب ··

وتساقطت نظراتى الغائرة العمياء على شيء ··· وجه ··· وجه طفل ؟ وجه فتاة ؟ وجه رجل ؟ لا أدري ·· لم تسـتطع عيناى الكليلتان أن تتبيّنا صاحب الوجه ·· لكنّي رأيت وجهاً ·· ورأيت على الوجه ابتسامة ··

وشدّتنى الابتسامة الى الدنيا فجأة كما تشدّ سنارة الغواص اللؤلؤة من قـاع البحر الى سـطح الارض ·· كأنما كنت فى قاع عميق مظلم بعيد ثم جذبونى بحبل الى النور والهواء ·· وكأنما نسيت شفتاي الابتسام ! ··

فنظرت مشدوهة الى الوجه لا أدري كيف أردّ عـلى هـذه

الابتسامة العجيبة ·· التى بدت لي لغة جديدة لم أتعلّمها ·· وهززت رأسي بلا إرادة وبلا معنى لأردّ على ابتسامته ·· وعيناي ثابتتان على وجهه متعلّقتان بشفتيه كغريق يتشبّث بحبل النجاة ··

وأحسست أن ثقل قدميّ قد خفّ بعض الشيء ، وأن جسدي الحديديّ قد لان بعض الليونة ·· وفتحت فمي بلا وعي ووجدتنى أنطق بلا ارادة :

ـ أشكرك ··

ورنّت الكلمة فى أذني رنيناً عجيباً ·· لم يكن لها نفس الرنين الذى تعوّدته أذناي ·· ولم يكن لها نفس المعنى الذي فهمه عقلى ··

ولم أسمع ردّه على كلمتي كأنّه لا يفهم تلك الكلمات العاديّة التي يقولها الناس ، أو لا يؤمن بها ·· لكنّي سمعت عينيه وهما تبتسمان لى ·· كيف سمعتهما، لا أدري ؟ ولكنني شعرت أن حواسّي الميتة التى كانت ترى الناس جميعا كتلة واحدة ، سوداء ، قد عادت اليها الحياة فأبصرت ·· ورأيت نافذة الى جواري فنظرت منها ·· ورأيت أشعّة الشمس المشرقة تسقط على سطح مياه النيل الجارية كأنّما هي أسلاك ذهبيّة من نور سحريّ عجيب ·· ورأيت الناس فى الشارع يتدفّقون فى حيوية ونشاط ·· كأنما الحياة قد بلغت ذروتها ··

وتركت النافذة ونظرت الى الوجه ·· فرأيته ينحني لي في تحيّة وداع والابتسامة العجيبة حيّة على شفتيه ·· ثابتة على ملامحه كأنما هي جزء منها ·· ونزل الوجه من الاتوبيس واختفى فى زحام الشارع ·· لكنّ الابتسامة ظلّت أمام عينيّ لا تغيب · وأدركني احساس يشبه الإيمان بأن هذه الابتسامة لن تتلاشى أبداً من خلايا ذاكرتى ·· حتّى الموت نفسه لن يستطيع أن يفعل ·· لو مات هذا الوجه يوماً ، وسيموت حتماً ، فلن تموت هذه الابتسامة أبداً ·· ستبقى في ذاكرتي

وأنا أعيش .. ولو متّ أنا ، ولســـوف أموت ، فان هـــذه الابتسامة ستعيش فى ذاكرة من رآها غيري . ولو مات غيرى ، ولسوف يموت ، فستعيش في ذاكرة من رآها غيره .. كأنما هي إله خالد جبّار يوزّع الحياة هنا وهناك بغير حساب ..

وجاءنى هواء منعش من النافذة فجذبت نفساً عميقاً جعل عضـــلات قلبي ونفسي ترتمي فى راحة واطمئنان .. وقلت لنفسى : انّ الدنيا حلوة .. حلوة ..

وجاءت المحطّة ونزلت من الاتوبيس .. ومشيت فى خطوات خفيفة. أحسست أنّ جسدى مصنوع من الريش .. ومشـــيت في الشارع كأنّما أرقص .. وسمعت صوتاً فى أعماقي يغنّي .. ورأيت الوجوه كلّها أمامي تبتسم لى فأردّ على ابتساماتهـــا بابتسامة سهلة طبيعية .. كأنما .. كأنما لم تنس شفتـــاي الابتسام أبداً ..

ثمن الدم

لم يكن يشعر وهو جالس على بلاط الحجرة أن زوجته تركت ابنها الرضيع على الأرض بجوار فوطة الخبز الفارغة ، وزحفت الى جواره وهزّته في كتفه هزّات رقيقة حزينة وهي تقول بصوتها الضعيف الممزق :

ـ أبو محمود ، أبو محمود ، انت نمت ؟

وسمع صوتها كأنما هو آت من بعيد ، وأراد أن يفتح فمه ويقول لها :

ـ لا ، أنا لم أنم ، ولكنّي لا أرى ولا أحسّ ..

ولكنّه لم يستطع أن يفصل شفتيه الجافّتين اليابستين عن بعضهما ، أو لعلّه استطاع أن يفعل لكنّ صوته لم يخرج من بينهما ، وضاع في ذلك السرداب الحاوي المظلم الذي يصل بين قلبه وشفتيه ..

وعادت شفتاه الى الالتصاق ، لكنّ جفوته انفرجت عن عينين

واسعتين بارزتين ، يغرق سوادهما الصغير الباهت في صفار كرويّ كبير تتخلّله شعيرات دموية حمراء ··

ودارت عيناه حول نفسيهما فرأى وجه زوجته يستطيل تارة حتّى يشبه البلطة ثم يستدير تارة أخرى كالبلونة ·

ـ أبو محمود ، أبو محمود ، قوم ربنا يفتح عليك · النهار قرّب ينتهي والبنك حيقفل ·

وتنبّه أبو محمود حين سمع كلمة ـ والبنك حيقفل ـ ورفع رأسه الثقيل وطافت عيناه الصفراوان في الحجـــرة الضـّيقة كأنّما تبحثان عن شيء ·· ورأى وابور الجاز عـــلى الأرض والى جواره صندوق خشبيّ كبير هو كلّ ما يمـــلك من أثاث ·· ورأى ابنه الرضيع يرفس بقدميه الصغيرتين على البلاط والى جواره فوطة الخبز مبسوطة لا يعلوها شيء ··

وقال في صوت ضعيف خائر ·· فين محمود وسنية يا أم محمود ؟ ··

ـ راحوا للست توحيدة ··
ـ مفيش فايدة فيها ··

ـ يمكن تحنّ برغيف يمسك بطنهم لغاية ما ترجع من البنك ياأبو محمود ·· قوم ربنا يفتح عليك ··

واتكأ أبو محمود بذراعيه ونهض على قدميه يستند عـــلى الحائط الرماديّ المبلّل الذي نشعت فيه مياه المطر ·· وسعل سعالاً حادّاً وهو ينتفض ثم بصـــق على البلاط بصقة كبـــيرة حمراء ··

ووضعت زوجته على كتفيه شيئاً مهلهلاً يشبه المعطف وقالت وهي تحاول أن تشجعه : ربّنا معاك يا أبو محمود ·· ياريت أروح بدالك النهارده لكن أنا دوري بعد أربعة أيام ··

وفتح أبو محمود بابالحجرة فلفحت وجهه ريح باردة ولفّ المعطف على رأسه وعبر السطح ثم نزل مستنداً على الحـــائط

عشرة أدوار كاملة ·· وتقطّعت أنفاسه وتمزّق سعاله حين وصل الى الشارع الواسع وأخذ ينقل قدميه بلا وعي، وخيّل اليه أنه لا يسير بإرادته وإنما شيء ما يدفعه من الخلف الى الأمام ··

وفجأة شعر بقبضة يد صلبة تُوجّه الى فكّه لكمة قوية وسمع صوتاً خشناً يقول له في غضب : إنت أعمى ؟ ولم يشعر بأيّ ألم في جسده أثر اللكمة، ولم يفهم لماذا يخاطبه ذلك الصوت الغاضب ··

وواصل سيره يدبّ على الأرض بخطا واهنة ممزّقة ، ومرّ بقهوة الحاج بدوي وشمّ رائحة الدخان والشاي ، وودّ لو جلس لحظة والتقط بعض أنفاس من الجوزة المعمّرة ، وارتشف كوباً من الشاي الأسود الساخن ·· لكنّه تذكّر انّ الحاجّ بدوي هدّده بالضرب حتى الموت اذا اقترب من القهوة دون أن يحمل في جيبه الثلاثين قرشاً التي تراكمت ديناً عليه من شرب الدّخان والشاي ··

وأخفى رأسه في المعطف وحاول أن يسرع الخطو بعض الشيء وهو يمرّ أمام القهوة ·· وأدركته رغبة شديدة في السعال فكتمها في صدره حتّى لا يسمعه الحاجّ بدوي الذي يستطيع أن يتعرّف على صوت سعاله من بين المئات ··

وما أن ابتعد عن القهوة حتى هدأ قلبه وأطلق رغبته المكتومة في السعال ، وشعر بنوع من الراحة والحرّية وهو يسعل بملء فمه دون أن يخشى شيئا ، ثم بصق على الارض بصقة كبيرة حمراء ··

ولم يدر أبو محمود كم أنفق من الوقت وهو يسير من شارع الى شارع وينتقل من رصيف الى رصيف وقد ترك زمام نفسه الى قدميه اللتين تعرفان الطريق كلّ المعرفة ··

ووصل أخيرًا الى البنك ·· ورأى الطابور هو الطابور يقف أمام الباب ·· والوجوه هي الوجوه التي يلقاها كل مرّة ··

والرائحة هي الرائحة التى يشمّها ٠٠ والصوت هو الصـوت الذي يسمعه في كل مرة :

ـ ازيك ياأبو محمود ٠٠

ـ الله يسلمك يادرويش ٠٠

ـ فاكر اسمك والا ناسيه ؟

ـ أنا أنسى عمرى ولا أنساه !

ـ ما تعملش جدع ٠٠ أجدع واحد فينا أحيانا ينسى أسمه ٠٠ هو العقل دفتر ؟ ٠٠

ـ على رأيك هو العقل دفتر !

ـ انت لك كام اسم ياأبو محمود ٠٠

ـ ثلاثة بس والله ٠٠

ـ بسيطة ٠٠ ها ها ها ٠٠

وضحك الرجلان وقد شـعرا بنوع من السـعادة لأنّهما يستطيعان أن يتحايلا على شيء ٠٠ ويستطيعان أن يخـدعا أحداً ـ وقد اتخذ كل منهما اسماً فى كل بنك من البنوك التى تشتري الدم من الناس ـ حتى يستطيع أن يبيع دمه فى ثلاثة أو أربعة بنوك دون أن يكتشفه أحد ٠٠

ورنّ ضحكهما كعواء كـلاب مريضة ضـالّة ، لكن سرعان ماالتصقت ضحكاتهما بحلقيهما الجافّين ، وعاد العبوس يرسم خطوطه البشعة على وجهيهما الناحلين بعظامهما البارزة المدبّبة ، ووقف كلّ منهما في مكانه من الطابور يلهث صامتا ٠٠

وقطع صوتَ الأنفاس اللاهثة صوتٌ ينـادي الأسـماء ٠٠ ويعقب تلاوة كل اسم رجل يخرج من الصفّ ويدخل من الباب ثم يختفي ليعود بعد قليل وقد أمسـك بذراعه وزاد وجهـه شحوباً وتساقطت بعض حبّات من العرق على جبينه ٠

ورنّ اسم « سعيد على عوضين » في الجوّ ·· وسرت همهمة في الطابور ، ثم أحسّ أبو محمود بلكزة فى كتفه وصــوت صديقه يهمس فى أذنه :

ــ انت نمت ياأبو محمود وإلّا نسيت اسمك ؟

وانتفض أبو محمــود كأنّما يفيق من غيبـــوبة ولفّ رأسه بالمعطف واتّجه الى الباب السحريّ ·· وســـار فى الدهليز الضيّق القصير بضع خطوات يعرف طولها وعرضها كما يعرف طول ذراعه وعرضه ·· وانحرف الى اليمين ، ودخل حجـــرة صغيرة ، ورقد على السرير المعدنيّ الرفيـــع ، وأحسّ باليـــد القويّة،نفس اليد التى ترفع كمّه القذر ، ورأى نظرة الامتعاض والتأفّف هى نفس النظرة ، وأشاح بوجهه عن الإبرة الطويلة السميكة وهي تدخل فى جلد ذراعه الجافّ بصعوبة كما تدخل مسلّة الإسكافى فى نعل الحذاء ··

ولم يشعر هذه المرّة بالألم الذي كان يعانيه حين تغرز الإبرة في ذراعه،ولم يفتح عينيه ليرى لون دمه الأحمر القــانى وهو يرتفع فى الزجاجة حتى يصل الى علامة تشـير الى رقم ٥٠٠ سنتيمتر ·· وكان فى كل مرة يتابع بعينيه صعود الدم من ذراعه الى الزجاجة حتى لا تنساب منه قطرة تزيد عن الكمّية المحددة وتنتقل عيناه من ذراعه الى الزجاجة فى يقظة شديدة كما تنتقل عينا البقّال من الميزان الى علبة الزيت وقد حرص على ألا تزيد قطرة أو لعلّه حرص على أن تنقص قطرة ··

لكن « أبو محمود » هذه المرّة كان تائهاً ، ولم يشعر بالقوّة أو الرغبة التى تعينه على أن يفتح عينيه ويتابع بهما شيئاً . وكان كلّ ما يريده هو أن يتركوه راقداً على السرير ·· لكنّــه سرعان ما أحسّ بلكزة فى كتفه تدعوه الى النهــوض والخروج ·· وقام متثاقلا ولفّ المعطف على رأسه ·· واتّجهت قــدماه المدرّبتان الى حجرة أخرى على اليسار ·· ووقف أمام نضــد طويل ، ومدّ يده مبسوطة ثم سحبها تقبض عــلى ورقتين ·· احداهما كبيرة ناعمة قيمتها جنيه ، والثانية أصغر حجماً وأقلّ

نعومة قيمتها نصف جنيه ..

وضغط بأصابعه النحيلة الطويلة على الورقتين في سعادة .
وقال لنفسه باسما : سأشترى خبزاً ولحماً ودخاناً وشاياً وكل شيء ..

وسار بخطواته المهتزّة الى الباب .. ورأى الطابور الهزيل الواقف يتضاعف فجأة الى أربعة طوابير ، ورأى عيني صديقه درويش تتضاعفان فجأة الى ثماني عيون تشخص اليه في فزع ودهشة ..

ولم يدر أبو محمود ما سرّ ذلك التضاعف أو تلك الدهشة لكنه رأى وجهاً كبيراً يقترب من وجهه استطاع أن يتعرّف فيه على ملامح صديقه درويش .. ورأى عيونا بارزة صفراء كثيرة تحملق فيه ..

ولم يفهم أبو محمود شيئاً مما يدور حوله ولم يسمع صوتاً لكنّ شفتيه اليابستين انفرجتا عن ابتسامة ضيّقة وخرج صوته في مجهود كبير وهو يمدّ يده قابضة على الورقتين :

— درويش ، درويش ، خد الجنيه والنص وديهم لمراتى ولمحمود وسنية ، وديهم يادرويش .. أوع تنس .. أوع .. درويش .. الجنيه والنص .. عشان يشتروا بها العيش واللحم .. درويش ..

وترنّح جسمه الهزيل وتداعى الى الأرض وأغمض عينيه ومات ..

حبي الوحيد

كل امرأة خائنة وراءها رجل خائن

كان لون السماء فى عيني غريباً . وكان طعم الخبز والجبن فى فمي بعيداً كلّ البعد عن طعمهما الذي عرفته .. وكانت وجوه الناس وهم يمرّون أمامي تبدو كوجوه العرائس المتحرّكة .. حتى الهواء الذي كنت أشعر به يدخل صدري فى صعوبة ، كان غريباً فى رائحته وكثافته ..

ونظرت الى يدى وهى تمسك بقطعة الخبز فأحسست أنهـا غريبة عنّي أيضاً فى شكلها ، وحركاتها ، وأصابعي تلتفّ حول الخبز رفيعة نحيلة كأنها أصـــابع دمية ليست فيهـــا دماء ، وليست فيها حياة ..

كل شيء حولي يبدو كأنّه ينتهي ، أو انتهى منذ لحظات .. وأحسست بمرارة الفناء فى حلقي ، ووقعت قطعـــة الخبز من يدي . ورأيت كلباً أسود يجري اليها .. ويمسكها بأسنانه ، وينظر إليّ .. ولا أدري ماذا كان في عينيـــه .. دموع !، جوع ؟ ، ألم ؟ ، ذلّ ؟ ، وحدة .. أم كل هذا ؟

وفتحت فمي في دهشة .. كأنني أعثر في هـــذا العالم الذي رأيته منذ لحظة ينتهي ، على قطعة من الحياة ، أية قطعة وأية حياة ، عثرت على عينيْ كلب أجرب فيهما شقاء ، وفيهما جوع ، وأشياء أخرى كثيرة تعبّر عن الحرمان والألم ، عن شيء تفصح ، تقول ، تنطق في ذلك العالم الأبكم ، الميت ..

واقتربت من الكلب أربت على رأسه ، وظهـــره .. وأحسّ الكلب بالحنان فبدت في عينيه الدهشة كأنما لم يربّت أحـــد على ظهره أبداً ، ثم انكمش ، واستكان تحت يدي كطفل يتيم ضائع ..

●●●

وأحسست بدموع ساخنة تنحدر على وجهي ، ونظــــر إليّ باشـــفاق ، وترك قطعة الخبز تقع من بين أســـنانه ، وأخــــذ يتمسّح به كأنه يقول لي : لا تبكي .. إنني معك !!
ودهشت وقلت لنفسي : تلك كلمات لم يقلها الرجل الـــذي اسمه زوجي .

وابتسمت للكلب في امتنان وربّتّ على ظهـــره ، وتركته ، ومشيت أفكر .. هل أعود الى البيت ، لا ، مستحيل ، سأموت هنا على قارعة الطريق ولا أذهب الى البيت ..

وغامت عيناي قليلا ورأيت زوجي جالساً في حجرة الطعام لابسا المنامة الجديدة التي اشتريتها له بدلاً من أن اشـــتري لنفسي حذاء بدل حذائي القديم الوحيـــد .. منامة حـــريرية بيضاء ..
وسمعت صوته يقول لي : من قال لك ذلك ؟
قلت له : فلان وفلانة وفلانة ..

وسكت قليلا ..

وظننت أنه سيقول لي : كذّابون ، وينتهي الكلام ويخـــرج الى عمله ..

لكنني سمعته يقول وهو ينظر بعيداً عني : لقد صـدقوا ، إنني أحبها ، وإنني أقابلها كلّ يوم ، وأذهب الى بيتها ، ماذا تريدين ؟

وفتحت فمي لأردّ لكن الكلمات تجمّدت على شفتي وأحسست أن قلبي لم يعد يدق ، وأن الحياة داخلي تجمّدت ، وانتهيت .. وأفقت بعد قليل ورأيت حولي عيوناً كثيرة صغيرة تنظـر اليّ وتقول لي : ماما ..

ولم أحتضنها ولم أقبّلها ، رأيتها عيوناً غـريبة عني .. تشبه عينيّ الرجل الذى كان جالسـاً أمامي منـذ لحظات ، وأحسست أن أعماقي الميتة لم يعد فيها أثر لأمومتي .. وماهي أمومتي ؟ أليست هي امتداداً لحبّي ؟ أليست هي حبّي لنتـاج حبّي ؟ ..

ومشيت بلا وعي .. الى أين أذهب ، الى أبي ، الى أمي ، وماذا أقول لهما ؟ ، زوجي يخونني ، يالّلعار الذى ينصبّ على رأسي قبل رأسه ، يالّلكرامة التي سـتهدر التي هي كرامتي ... لا ، لن اذهب اليهما .. لن يعرف أحد من الانس أو الجنّ أن زوجي يخونني .. بعض الناس يرونه مع امرأة ويشكّون .. ولكنّ الشكّ غير اليقين ، إنّ كلّ الناس يشـكّون في كلّ الناس ... هذا شيء طبيعي عامّ كالهوام ... والهـواء ... والماء .. ولكن اليقين ! لا لن أبوح لهـم بالسـرّ الخطـير ...

ومشيت ..ومشيت .. وأحسست أن قدمي تؤلمني .. آه ! ليتني اشتريت الحذاء بدلا من المنامة .. الى أين أذهب ، الى أين أذهب .

ولا أدري كيف قفزت صـورته في رأسي ، رجل متوسّـط الطول له عينـان زرقاوان ضيّقتـان .. حينما رأيته مع زوجي لأول مرة كرهته بلا سبب ، لعلّ حركات رقبته الكثيرة وهـو يشدّ ربطة عنقه أثارت اشمئزازي ، أو لعلّ صوته الرفيع الحادّ الذي يشبه صوت النسـاء جعلني أنفر منه ، لـكنّ زوجي كان يحبّه ويهتمّ به فكان لابدّ لي ألاّ أظهر نفوري منه ، ورأيت هذا الرجـل كثيراً مـع زوجي ... وفي مرّة جـاء ولم يكن زوجي

بالبيت .. وظننت أنّه سيمضي لكنّه جلس وطلب فنجاناً من القهوة .. وأخذ يكلّمني وينظر إليّ .. الى ذراعي ، والى صدري ، والى ساقيّ حينما أمشي .. وأحسست أن نظراته الغريبة تكاد تخلع ملابسي كلها من فوق جسدي ، وكان جريئاً وقحاً وسمعته يقول لي بصوت كئيب فيه شهوة فجّة ماعت لها معدتي وأمعائي وأحسست برغبة في القيء: إنّ زوجك محظوظ . هذا الرجل إنّي أحسده .

لا أدري كيف تذكّرت هذا الرجل، مع أن هذه الحادثة وقعت من سنتين ولم تتكرر بعد ذلك، حتى أنني نسيتها .. هل لأنّه الرجل الوحيد الذي غازلني بعد أن تزوّجت ، هل لأنّني أصبحت في حاجة الى أن أستعيد كلماته لي : « إنّ زوجك محظوظ . هذا الرجل إنّي أحسده » ، وأحسست أنّ ثقتي بأنوثتي بدأت تهتزّ .. وأغمضت عيني ، آه .. لا أريد أن أحسّ ذلك ، لا أريد أن أرى أنوثتي وهي تحتضر أمامي ، لا لن أدعها تحتضر ، سأنقذها من الموت !

وفتحت عيني في الطريق ومشيت أجري اليه ، وكنت أعرف بيته، فقد كان زوجي يمرّ عليه كثيراً ، ورأيت ملامحه تتقلص في دهشة كبيرة حينما فتح الباب ورآني .. وظنّ أوّل الأمر أنّ حادثاً وقع لزوجي ، لكنّني جلست وجفّفت عرقي ، وظللت ساهمة بعض الوقت ، وقد تجسّم نفوري منه حين رأيته بملابسه الداخلة فقط وذراعاه وساقاه رفيعتان معوجّتان ويغطّيهما شعر كثيف أسود لا يبدو نظيفا ، كأنه لم يستحمّ منذ شهور ..

وقلت وأنا لا أنظر اليه : أريد ان أعرف ، لماذا قلت لي في يوم من الأيام أن زوجي محظوظ وأنك تحسده ؟ لماذا قلت ذلك ؟ هل كانت مجاملة، مجرّد مجاملة، أم أنك تعني ذلك ؟

وسمعته يقول : كنت أعني ذلك . ولا زلت أعنيه .

وأحسست بدبيب الأمل يسري في أعماقي ، ويمنح الحياة ، بعض الحياة لأنوثتي الجريحة التي تحتضر ..

وقلت : ولكنّه تركني الى امرأة أخرى ٠

قال : المغفل ! كلّ الرجال مغفّلون إلاّ القليل ٠
قلت : وأنت ؟
قال : أنا من القليل ٠ ولهذا لم أتزوج ٠

وأعتدل في كرسيّه وقال : كم سنة مرّت على زواجكما ؟
قلت : عشر سنين ٠

قال وهو يبتسم : وهذه أول خيانة له ؟
وأحسست في رغبة شديدة في أن أصفعه على وجهه، لكنّي تماسكت وسمعته يضحك ويتهته فى سعادة كبيرة ويقول : أعني أوّل خيانة تعرفينها ؟

وقلت له فى اشمئزاز : تعني أنه كان يخونني ٠
وقال : لا أدري ٠ ولكني أعرف أن كل الرجال يخونون زوجاتهم ٠ كلّ الرجال الذين عرفتهم ٠

قلت وقد زاد أشمئزازي منه ومن كلّ الرجال : إن الرجل بطبيعته خائن ٠

قال وهو ينظر بعيداً : ما دامت تلك هي طبيعته، فلا يمكن أن تسمّيها خيانة ٠

ـ وماذا تسمّيها إذن ؟

ـ ولماذا نسمّيها؟٠ إنني أكره الأسماء ٠ ليس هناك اسم ينطبق انطباقاً كاملاً على الشيء الذى يرمز اليه ٠ ليس في مقدور الإنسان أن يخلق اسماً لشيء لم يخلقه هو ، إنّ الطبيعة أكبر من الانسان بكثير ٠

وسكتّ قليلا أفكر ٠٠ وقلت : يا للرجل الغريب! يستطيع أن يبرر أيّ شيء بلسانه ٠٠ لكنّي أحسست بشيء من الحياة تدبّ فى عقلي المشلول ، وأسندت رأسي على ظهر الكرسي وقلت له وأنا شاردة : والمرأة ؟

قال بلا تفكير : كالرجل تماما ٠

وانتفضت واقفة وأنا أقول : لا ! ان المرأة لا تفكّر في خيانة زوجها أبداً ! ٠٠٠

ورنّ صوتي في أذني قويّاً مؤمناً بما أقول ٠٠

ورأيته ينظر إليّ نظرة ذات معنى فقلت : إلاّ اذا عرفت أنّه يخونها ٠ وأنا لا أسمّيها خائنة في ذلك الوقت،لأنّهاتخون نفسها قبل أن تخونه ، وتهدر كرامتها قبلأنتهدر كرامته ، إنّه نوع من الانتحار البطيء تفعله المرأة الجبـــان التي تخاف من الموت السريع ٠

وسكت قليلا يفكر ثم قال وهــو يبتســم : ياللمرأة الغريبة! تستطيع أن تبرر أي شيء بلسانها ٠

وابتسمت فانتهز هذه الفرصة وقال : ماذا تشربين ؟

قلت : فنجان من القهوة مظبوط ٠

وقام الى المطبخ وتركني ٠٠٠ وأخـذت أتأمّل الصــالة التي أجلس بها والأثاث المتناثر هنا وهناك بلا ترتيب ، وبلا نظافة ٠٠ وعاودني اشمئزازي منه ومن حياته ٠٠٠ يا للمنافق الكذاب،هل يؤمن بكلّ ما يقول ٠٠ وهــل يفهم الحيـاة حقّـاً كمـا يبدو أنّه فليسوف كبير ، وإذا كان هو متفوقاً على الناس في عقله وفهمه للحياة فلماذا تكون حياته أســوأ من حيــاتهم ، وبيته أقــذر من بيوتهم ، وجسمه أقذر من أجسامهم ٠ إن الفهم الصحيح يدفع الى الأمام ، الى التقدّم ، وإن الحياة تختار الأصلح دائماً ٠٠

وعاد يحمل في يده فنجاناً من القهوة ٠

وقلت له : وأنت لا تشرب القهوة ؟

فقال : أشربها ، ولكنّ عندي فنجاناً واحـداً لا يمكن لنا أن نستعمله في وقت واحد ٠

وضحكت وأنا أنظر الى شعر ساقه اللزج المتّسخ وقلت : هل أنت سعيد في حياتك التي اخترتها لنفسك ؟

قال لي في بساطة : وهل أنت سعيدة ؟ ·· وهل زوجك سعيد ؟ ·· وهل الناس سعداء ؟ ·· إنني لا أبحث عن السعادة في الحياة ، ولكنّي أهرب من التعاسة فيها ·· اشربي القهوة قبل أن تبرد ·

وأخذت أشرب القهوة في هدوء وبطء ، وأحسّ بوقع نظراته على وجهي ويدي ، لماذا ينظر إليّ ؟ غريبة! لقد كنت أظن أنه رجل سطحيّ تافه · يا للجهل! كثيراً ما تخدعنا الصور والأشكال · ولكن هل هو غير تافه ؟ · لا أدري ·· وما هي التفاهة ؟ لماذا يستمرّ في النظر إليّ ؟ هل لازال يعتقد أن زوجي محظوظ وأنه يحسده ؟ ·· هل ينظر إليّ كامرأة يريدها أو يشتهيها ، هل يريد أن يساعدني أم يريد أن يستغلّني ؟ لا أدرى شيئاً ·

وكأنّما قرأ أفكاري وسمعته يقول : لا زلت أعتقد أن زوجك محظوظ وأنا أحسده، ولكنّي لن ألمس شعرة واحدة من شعر رأسك ··

ونظرت اليه في دهشة وقلت : لماذا ؟

وتقلّصت ملامحه فجأة ، وبدأ عليه الغضب والثورة ورأيته يقف ويقول لى بلهجة جادّة قويّة : لن أكون السكين التي تغمدينها في صدرك ، أنت تريدين أن تخوني نفسك وزوجك . ولكنك في الواقع ستخونين شخصاً آخر قبل نفسك وقبل زوجك ، وهذا الشخص هو أنا !

وخفق قلبي لهذه الكلمات الجادّة العميقة، ولم أكن رأيته قطّ يتكلم بهذا الجدّ العميق، وأحسست بالدموع الساخنة تسقط على وجهي ، وأطرقت ساهمة ، وساد الصمت بيننا لحظات طويلة ، وأمسكت حقيبتي ، ووقفت وقلت له : أشكرك على القهوة ·

ورفع عينيه دون أن يقف وقال لي : « الى أين ستذهبين ؟ »
قلت : الى بيتي ·

قال : وزوجك الخائن ؟
قلت: سأغفر له ·

قال : لماذا ؟

قلت لن أبحث عن السعادة في الحياة ، ولكنى سأهرب من التعاسة فيها ٠

وضحك مقهقها وقال : يا للعقل ! يا للحكمة !

وضحكت وخرجت ٠٠ وذهبت الى بيتي ورأيت زوجى جالساً وحوله الأطفال ٠٠ وأقبلوا عليّ يهللون فرحين : ماما ٠٠ ماما ٠

ولما هدأت الضجة وأصبحت أنا وزوجى وحدنا قـال وهـو يبتسم : لقد ذهبت لتنتقمي منّي ٠ لتخونيني ؟

وظهرت على وجهى الدهشة وقلت : كيف عرفت ذلك ؟

قال في بساطة وثقة : أنا أفهم المرأة ٠

وابتسمت وقلت : يا للرجل المغرور! ٠

وأحسست بذراعيه القويّتين حولي وهمس فى أذني قائلا : أحبك ، أحبك.وابتعدت عنه قليلا وأنا أنظر في عينيه في دهشة وقلت له :

ـ وتلك التى كنت تحبّها فى الصباح ؟

وجذبنيإليه وضمّنى الى صدره أكثر وأكثر وهمس :

ـ كان ذلك فى الصباح ، ولقد انتهى الصباح ٠

وجريت بعيـدا عنه وقلت له في ثورة : يالك من مخـادع ! تخدعها وتخدعني فى نفس الوقت! ٠

وقال وهو يبتسم في غرور : بل أخلص لك ولها فى نفس الوقت ٠

وقلت في غضب : لا، إنّنى لن أعيش معك ٠

وسرحت لحظة ثم قلت في شرود : سأذهب اليه ٠

واعتدل جالسا وقال : من هو ؟

قلت : صديقك الحميم ٠

وأنفجر ضاحكا وهو يلقي برأسه الى الوراء وقال في ثقة وغرور : لن يستطيع ٠

ونظرت اليه فى دهشة وقلت : لماذا ؟

فقال فى بساطة : إنّه مريض،ولهذا لم يتزوج ٠

ودارت الارض بي لحظة ٠٠٠ وقلت لنفسى : يا للرجل المنافق!

ونظرت الى زوجي وهو راقد على ظهره ، وعيناه تنظران إليّ في جوع ونهم،وقلت لنفسي : ياللرجال المنافقين ! كل الرجال !

وسمعت أصواتاً صغيرة تنادي عليّ ماما ٠٠ماما ، فخرجت من الحجرة أجري اليهم ، كانوا كطوق نجاة ألقي إليّ في عرض اليمّ ، ونظرت الى عيونهم البريئة وهي تنظر إليّ فذكّرتني بعيني الكلب الأسود الذي قابلته فى الصباح فيها جوع ، وفيها ألم ، وفيها حرمان ٠

واندفعت كالمحمومة الى المطبخ وأعددت لهم الطعام ، وجلست أتأملهم وهم يأكلون فى لهفة ، وأحسست بأمومتي تستيقظ فجأة ، وشعرت بلذّة وسعادة لم أشعر بهما من قبل ٠

وألقيت جسدي المنهمك على الفراش وأنا أحس براحة واستقرار ٠

وقلت لنفسى : لا ٠ ان أمومتي ليست امتداداً لحبّى ، وليست هى حبّي لنتاج حبّى ٠٠ إنّها ٠٠ حبّي الحقيقيّ الوحيد ٠

الجانب الآخر ..

الدنيا ليل ، ليل يونيو الدافئ الصافي ، ونسمة القاهرة الرقيقة تدخل من نافذة العربة الطويلة فتعبث بخصلات شعرها الأسود القصير فيطير على وجهها ، وعينيها ، ويحجب عنها الطريق الذي يجري سريعاً تحت عجلات العربة ، وترتفع أصابعها الطويلة الرفيعة من حين الى حين تعيد خصلات الشعر الى مكانها ..

ونظرت حكمت الى جوارها فرأته وهو جالس يمسك بعجلة القيادة وينظر الى الأمام . ويبدو أنفه من الجانب مقوّساً بعض الشيء وعيناه غائرتان الى حد ما . فشعرت بانقباض غريب : لقد رأته من قبل مرّة أو مرّتين ، لكنّها كانت ترى وجهه من الأمـــام ، وكانت ملامحه توحي لها بالقوّة والرجولة ، عيناه عسليتان صافيتان تكشفان في صدق عن أغوار نفسه ، وجبهته عريضة فيها سماحة ونبل ، وشفتاه منفرجتان عن ابتسامة طيّبة تعبر عن قلب انسان كبير .

إنّ هذه اول مرة تنظر اليه فيها من الجانب ..

ونظرت الى وجهه من الجانب مرة أخرى ؟ ·· باللغرابة ! كأنها ملامح رجل آخر لايمكن ان ترتاح اليه ولا يمكن ان تثق فيه · وكانت تودّ أن تقول له عُدْ بي من حيث أتيت ، ولكنها ظلّت صامتة ·· وأخذت تنظر الى الطريق وأصابعها تسوّي خصلات شعرها الطائر

ووصلا في النهاية ·· وأوقف العربة ·· ونزلا ·· وجلسا متقابلين تحت شجرة كبيرة ، وسمعت صوته الرجاليّ القويّ يقول :

ــ ماذا تشربين ؟

ــ عصير ليمون ··

وكانت أول مرة تخرج فيها معه ·· لماذا عرض عليها الخروج معه، مع أنّه لم يرها إلاّ مرّة أو مرّتين ؟ ولماذا استجابت لدعوته مع أنها رفضت دعوات الكثيرين ؟

جلست حكمت شاردة تفكر في تلك الأسئلة التى تتزاحم فى رأسها: هل لأنه رجل ، يمتلئ رجولة ، كما يبدو من صوته ، وملامحه ، وقوامه الفارع ؟ ·· هل أحسّت في مظهره بذرة الرجل الذى تبحث عنه منذ ثمانية وعشرين عاماً التي تكوّن عمرها ، الرجل الذى يحتوي عقلها وقلبها وجسدها ، ويسكن عنده قلقها ، وحيرتها ، وأحزان حياتها؟·

ونظرت اليه تفتّش فى ملامحه عن ذلك الرجل ، وسمعت صوته القوى يقول :

ــ حكمت ، أنظري الى هذه الشجرة وإلى هذه الأنوار التي تتخلّلها ·· كم هى جميلة ! ··

ورفعت حكمت بصرها الى الشجرة ، كانت ضخمة تنتشر فيها لمبات النور الملوّنة بعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أزرق ··· وقالت :

ــ إن الشجرة جميلة ، ولكنّ تلك الأنوار الكثيرة تفسد جمالها

وقال في حماس :

ـ بالعكس ، انها تزيدها جمالا. ومرت الدقائق وهو يتطلع الى الانوار ، وقد انقلبت ملامح الرجل فيه الى ملامح طفل صغير ، ينظر فرحا الى مجموعة من « البلونات » الملوّنة .

وأمسكت حكمت بكوب عصير الليمون ، وأخذت ترشف منه في بطء ، ثم رأته يلتفت اليها ، ويقول في سعادة ساذجة تتناقض مع قوامه الفارع ، وملامحه العنيفة :

ـ أنت جميلة ، جميلة جداً. ولم تكن تنتظر أن يكون أوّل حديثه معها هذه الكلمة .. إنّ أيّ رجل يجلس مع أيّ امرأة يقول لها « أنت جميلة » ، إنّها كانت تتوقّع منه أن يقول شيئاً آخر ، شيئاً عميقاً كبيراً يهزّ كيانها ، إنّه رجل عاديّ جداً .. يبدو أنه لا يعرف أكثر مما قال .. ولكن مظهره ، ملامحه التي توحي بالعمق والقوّة ، صوته العميق ، ذلك الإحساس الأول الذي شعرت به بأنه الرجل الذي تبحث عنه منذ ثمانية وعشرين عاما ، هل كان شعوراً كاذباً ؟ .. ولكن لماذا يبدو صغيراً الآن ؟ لماذا يبدو عاديّاً ؟ .. وهل يمكنها أن تتجاهل فهمها ، وخبرتها ونضوجها ، وتقبل رجلاً عادياً ؟ ، ولكنها أشرفت على الثلاثين من عمرها ولم تقابل الرجل الذى تريده .. هل تيأس من الحصول عليه ؟ .. وهل ترضى بهذا الرجل ، الطويل ، العريض ، الجالس أمامها ، والذي تتراقص عيناه في طفولة على لمبات النور الملوّنة ؟

وانتفضت على صوته العميق جدّاً ، وهو ينظر في سذاجة ، وسطحيّة الى يديها وهما تمسكان بكوب العصير يقول :

ـ إنّ يديك جميلتان جداً ، صغيرتان ... ماأجملهما ؟

ومدّ يده كالطفل وهو يقول :

ـ أريد أن ألمسهما ... هل تسمحين ؟ »

وكانت قد بلغت من النضج ، وفهم الحياة حداً لم تعد معه

تخشى تجربة أيّ شي،٠٠ ولكنّها تريد أن تختبر هذا الرجل ، تريد أن ترى كيف يبدو حين يمسك يديها ٠٠ هل سيكون ذلك الطفل الذى يلهو بالبالونات الملونة أم أنّه سيكون الرجل الذى يرتسم على ملامحه ؟ ٠

وكانت تريد أيضاً أن تمنحه الفرصة ليظهر عاطفته لها ، هل يحبّها ؟ وما نوع هذا الحبّ ؟ وكيف يعبر عن هذا الحبّ ؟

ولم تكن تريد أن تحكم عليه بالإعدام من أوّل لقاء ، لقد عوّدتها التجربة والخبرة أن تصبر ، وأن تنتظر ، وأن تتأمّل ٠٠ إنّ لحظة واحدة خليقة بأن تخلق حبّاً جديداً ، وإن لحظة واحدة خليقة بأن تقتل حباً قديماً ٠٠

وأعطته يديها الصغيرتين النحيلتين ، فأمسكهما وقبّلهما ووضع وجهه فى راحتيهما ، وراح يبتلع لعابه ، وتفاحة آدم فى رقبته تعلو وتهبط وسمعته يقول لها : أحبّك ٠٠

وكانت إنسانة رقيقة الحسّ والعاطفة ، لها قلب كبير ، حانٍ ، يحترم شعور الإنسان أينما كان وكيفما كان ، فنظرت اليه فى ودّ ، وحنان،وقالت بصوت يختلج بالصدق والحرارة ٠٠

ـ حينمارأيتك أحسست أنك قد تكون الرجل الذى أبحث عنه طوال عمرى ٠٠٠ ولكن ٠٠

وسكتت ٠٠ لم تكن تريد أن تصدمه ، ولم تكن تريد أن تفجعه ، ونظر اليها كأنه لم يسمع ما قالت وقال :

ـ إن يديك ناعمتان جدا ٠٠ ما هذا ؟ هل صُنعتا من البللور ؟ » ٠٠

بللور ؟! ٠

ما هذا الرجل ؟ إنه لايرى إلاّ الأنوار ، والبريق ، والبللور ؟

وأحست انهـــا بدأت تضيق به فسحبت يديها من يديه ، واعتدلت في كرسيّها ، وقالت له في جدّية :

ــ الواقع أنك تحبّني بطريقة غريبة عـــليّ ·· إنّ كلامك لايصل الى قلبي ، بل لا يكاد يصل الى أذنيّ ، الا تعـــرف الحبّ ؟

ونظر اليها في دهشة وقال :

ــ هل انت غاضبة يا حبيبتي ؟ لا لا لا أريدك غاضـــبة ·· اسمعي ·· سأقول لك آخر نكتة قيلت عن القرود ·· كان فيه قرد في حديقة الحيوان ، وبعدين · وقاطعته قائلة ··

ــ أرجوك ، أنا لا أحب النكت ! ·· وقال في دهشة :

ــ لا تحبّين النكت ؟ لماذا أنت حزينة ياحبيبتي ؟ ·· لـــماذا لا تكونين مرحة ؟ إنّ مظهـــرك المشرق وابتساماتك الدائمة ، دلّتني على أنك فتاة تحبّين المرح ·· يا إلّهي إكثـــيراً ما تخدعنا الصور !

وابتسمت حكمت وقالت :

ــ حقّاً ، كثيراً ما تخدعنا الصور · لقد خُيّل إليّ أنك رجل رصين ! ··

وانتفض مذعوراً كأنما لدغته عقرب وقال :

ــ رصين ؟! ما معنى رصين يا حبيبتي ؟ ··

ــ أعنى رجلاً جادّاً ··

وتطلّع الى الشجرة الملوّنة بالنور ، ونظر الى يديها وذراعيها وقال :

ــ أكون رجلاً جادّاً ؟ ·· وكيف أكون رجلاً جادّاً في مثـــل هذا الوقت ·· والطبيعة حولي ترقص ، والجمال يجلس أمامي ·· إنّ وقت الحبّ ياحبيبتي لا يحتمل الجدّ ··

ونظرت اليه في إشفاق كبير .. ماذا تقـول له ؟ وكيف تشرح له ؟ ترى هل يفهم لو قالت له إن وقت الحبّ هو أكثر أوقات الحياة رصانة وجدّية ، وإن أجمل مافى الحبّ هى تلك اللحظات الرصينة الجادّة التي تطفر فيها الدموع ، دموع الحب التى تختلط بالألم ، والفرح والأمل .. ولكن هل يمكن لعينيه أن تطفر منهما دموع الحب ؟ تلكما العينان السطحيّتان اللتان تتراقصان مبهورتين بكل لون فاقع صارخ ؟ تلكما العينان اللتان تنظران اليها فلا تريان الا سطحهما الخارجى .. البللور ؟!

وقالت له في بساطة :

ـ ان مظهرك يدل على أنك رجل جادّ ..

ـ إنّنى رجل بسيط ، بسيط جدّاً ، لا أعقّد الامور : لماذا تحبّ النساء تعقيد الامور ؟

ـ ولكننى رأيتك في عملك .. إنّك تبدو فيه رجلاً آخر غير الذى يجلس أمامي ..

ـ هذا طبيعيّ .. ترى هل أكـون في عملى ، وحولى رجال فيهم خشونة، كما أكون وأنا جالس مع فتاة رقيقة حلوة !

قالت :

ـ لا أقصد ذلك ، وانما تكـون أنت نفس الرجل ، وليس رجلا آخر يناقضه ..

قال :

ـ إنّنى لا أعرف عن الحبّ إلا أنه جانب الحياة الجميل المرح ! إنّه الوعاء الذي ننفض فيه متاعب العمل ، والكفاح فى الحياة .

وتنهّدت حكمت في أسى وسكتت فسمعته يقول :

ـ ابتسمي ، اضحكي ..

وفتحت شفتيها عن ابتسامة هادئة ، لكنّ قلبها كان يجترّ فجيعتها في الرجل الذى ظنّت أنه رجلها ، ولم تكن أوّل فجيعة

فى أوّل رجل ٠٠٠ كانت تبحث دائما وكانت تفجع دائما ، ولم تكن تملّ البحث ٠ ولم تكن الفجيعة تسلّمها الى اليأس أبداً٠

وأسندت رأسها الى ظهر الكرسيّ ، ونظرت الى السماء في شرود وظلّ يتأمّلها طويلا ثم قال :

ــ لا تظنّي ياحكمت أنني ألهو بك ٠ إنّ اللهو شيء ، والمرح شيء آخر ٠٠ إنّي لا أريد أن أصنع من حبّي مأساة درامية تذرف فيها الدموع ٠٠ إنّني أريد أن أصنع من حبّى قصّة مرحة كلّها ضحك وابتسام ٠٠ لا أدري لماذا تبحث النســـــاء عن الآلام دائما ؟ ٠٠

وقالت حكمت وهى تنظر الى السماء :

ــ ليس هناك حبّ بلا دموع ، وانفجر صائحا :

ــ يا إلهى ! إنّنى لا أطيق منظر الدموع ٠

وأشار الى الشجرة المضاءة وقال :

ــ انظرى الى هذه الأنوار ٠٠ انظري الى هذه الشجرة ٠٠ انظري الى الطبيعة الجميلة ٠٠ إنّ الحياة جميلة تريد أن تسعد الإنسان فلماذا يبحث الإنسان عن شقائه ، وتعاسته ؟

وقالت وهى لا تزال تنظر الى السماء :

ــ ولكن الألم أحياناً يسعد النفس ، والروح ٠٠ والدموع أحيانا تكون فيها لذّة تفوق لذّة الابتسام والضحك ٠٠

وضغط بيده على المائدة فى رفق وقال :

ــ أنا لا افهم هذا الكلام ٠

وانقضت لحظـــة صمت قصيرة ، وأحسّت حكمت بيـــديه تقتربان من يديها ، وتمسكهما ، ووضع فى راحتيها وقال :

ــ حكمت ٠ حينما رأيتك لأوّل مرة أحببتك ، وأحسست أنّك تطابقين الصورة التى رسمتها لشريكة حياتى ، لزوجتي ٠٠

ولهذا طلبت منك أن نلتقي خارج العمل . إنّني لا ألهو . إنّني أريد أن أتزوّجك، فهل تقبلين ؟»

وظلّ رأسها على الكرسي ، وعيناها معلقتان فى السماء ولم تردّ

ونظر اليها فى دهشة وقال :

ــ لماذا لا تردّين ؟

قالت فى بساطة :

ــ أنت لا تفهمنى . إنّ الحديث عن الزواج لم يحن موعده بعد إنّى أرى أنّنا مختلفان فى جوهرنا .. قد تكون أعجبت بمظهري وقــد أكون رأيت فى مظهرك الرجل الذى أبحث عنه ، ولكنّ الجوهر .. الأعماق .. نظرتنا الى الحياة .. كلّ ذلك يختلف اختلافاً كبيراً

قال : إنّه الاختلاف الطبيعيّ بين الرجل والمرأة .

قالت : إنّ الرجل والمرأة يختلفان في تكوين جسدهما، هذا طبيعي ، ولكن القلب واحد .

قال : أنا لا أفهم كلامك أيضاً .

وسكتت حكمت قليلاً، ثم قالت وأسى الفشل يتعلّق بأهداب عينيها :

ــ هل نعود ؟

قال في يأس : « كما تشائين »

وركبت الى جواره فى العربة الفارعة الطــويلة ، وعادت النسمة الدافئة الرقيقة تدخل من نافذة العربة فتعبث بخصلات شعرهــا الأسود القصير ويطير على وجههــا ويحجب عينيهــا السوداوين الحزينتين ، وقد تجمّدت بين ما فيهما الدموع ، ورفعت بأصابعها الطويلة النحيلة خصلات الشعر عن عينيها ونظرت اليه ، ورأت وجهه من الجانب ... ولم تدهش هذه المرة ، إن وجهه من الجانب يعبّر عن وجهه الحقيقي .

وكان هو ممسكاً بعجلة القيادة يفكّر ويقول لنفسه إنها فتاة غريرة تعيش في الأوهام · لم اتصوّر أنها ترفضني رغم مركزي وثروتي · يا لغبائها! الا تحسّ بالمتعة وهي تجلس الى جواري في هذه العربة الانيقة ؟ .. ألا تحسّ ؟

وكانت عيناها السوداوان شاردتين في الطريق الممتدّ الطويل تفكر أيضا وتقول لنفسها إنّه رجل غرير يعيش في الأوهام · لم أتصوّر أنه يفكّر في الزواج قبل أن يعرف الحبّ .

وكان كلاهما مخطئاً .. وكان كلاهما على صواب ..

لا شيء يهمني..

دوت الكلمة فى أذنيها دوياً غريباً جعل الحجرة تدور فى اهتزازات قوية سريعة .. رجّت الأشياء رجّاً عنيفاً .. ضاع معه تماسكها وتلاصقها وانفصلت جزيئاتها وذراتها بعضها عن البعض، ففقد كل شيء لونه وحجمه وكثافته .

وجاهدت عيناها تبحثان عن الطبيب الطويل ، أو عن معطفه الأبيض . او عن منضدة الفحص الجلدية .. او عن الجدران الرمادية .. دون جدوى .. فقد اختلط أمام عينيها البياض بالسواد ، والإنسان بالجماد ، والمساحات بالأحجام .. وشعرت كأنما هي تغوص الى قمّة راسها في مادّة غريبة مخيفة .. لها ملمس الطين ، ولها ميوعة الماء ، ولهاسواد الليل ، ولها عمق السماء

وشعرت بذراعيها تثقلان وتثقلان كأنهما دكتا لآخرهما بالرمال .

ثم فتحت عينيها بعد لحظة .. ورأت كلّ شيء فى مكانه المعهود .. ورأت الطبيب الطويل بمعطفه الأبيض .. ورأت منضدة الفحص الجلديّة والجدران الرمادية ..

واقترب منها الطبيب في خطوات بطيئة ثقيلـــة وسمعته يقول :
ـ كنت أظنّ أنك شجاعة ..
ورنّت كلمة شجاعة في أذنيها رنيناً غريباً .. كأنما فقدت معناها القديم ..
وردّت بلا وعي قائلة : شجاعة ؟!
فقال الطبيب : نعم .. عهدي بك شجاعة ..
وقلبت في رأسها الكلمة وتساءلت عن معنى الشجاعة .
ما هي الشجاعة ؟ أن تعيش الحياة ؟!. أو أن تموت الموت ؟!

كانت الشجاعة منذ لحظات هي أن تركب الاتوبيس قبل أن يقف وتشتري كتابا بعشرة جنيهات ليس معهــا غيرها .. أو تقول لزميلها أنت منافق ، أو تقول لرئيسها انت مخطئ ، أو تقول لبائع الخضر أنت لصّ ، أو تقول لصديقها أنا أحبّك ! .
ولكن الشجاعة الآن أصبحت شيئاً آخر .. أصبحت شـــيئا مستحيلاً يطلب منها المستحيل ..
كيف وهي حيّة تتحرّك وتتنفّس وتحسّ دقّات قلبها ونبضات روحها أن تعتبر نفسها ميتة ؟ كيف لها وهي تتحسّس خـلايا جسدها الدافئة الحيّة أن تسلّم بأن خلايا الموت الباردة تزحف على جسدها ؟

كيف لها أن تصدّق أن جسدها يمكن أن يحمل الحياة والموت في وقت واحد ؟ ولكن لماذا لا تصـــدّق ؟ ألم ينطق الطبيب بالحقيقة الرهيبة ؟ هل تنقصهــا الشـجاعة لتصدّق الحقيقة ؟ أم تنقصها الحقيقة لتمارس الشجاعة ؟ أم ينقصها العقـــل أم ينقصها الإيمان ؟ ..
أم أن الأمر كلّه لا يحتاج إلاّ الى ذلك التســـليم اللامنطقيّ بالقضاء المحتوم ! .
وارتفعت ذراعها الثقيلة تتحسّس صدرها باحثة عن الورم الصغير .. واستطاعت أصابعها أن تعثر عليه وسط النســيج الطريّ .. كرة صغيرة لها حجم الليمونة ولها جفـاف الزيتونة وكثافتها .. تجرى هنا وهناك بثقة وحرّية واســـتهتار .. استهتار بذلك اللحم المستقرّ الآمن واستهتار بذلك الجلد الذي

يغلّفها ويحدّدها ، فشدّته اليها فى تعاريج دقيقة كثيرة كتعاريج الوجه الغاضب ··

كرة صغيرة من اللحم ، من الخلايا الغاضبة الفائرة راحت تنقسم على نفسها فى جنون ·· وتلتوي على بعضها البعض فى صلابة وشدّة · وتفسح لنفسها مكاناً مريحاً وتأكل الخلايا الوادعة الآمنة أكلا ·· ما الذى أغضبها، هذه الخلايا ؟ وما الذي أشعل بها نار الجنون ؟ أهى سمة الكائنات الحيّة أن تأكل بعضها البعض ؟! هى سمة الموت الذى يعيش على الحياة ؟! لا أحد يعلم ·· لا الطبيب ولا الساحر ولا رجل الدين ·· لا أحد يعلم على الإطلاق · ·

ورفعت عينيها الحمراوين الى وجه الطبيب وقالت فى شرود :
ـ هل من علاج ؟

وقال وهو يبتسم : لا ·· وكأنه يقول نعم ··
قالت : لماذا لا تفتحون صدري وتخرجون منه هذه الكرة المجنونة ؟

قال الطبيب بصوت بارد وكأنه يجيب على مثل هذا السؤال مئات المرات فى اليوم :
ـ لا فائدة ··· لقد انتقلت بعض الخلايا المجنونة الى الدم وحملها الدم الى الغدد ··

وقالت في حماس : ولماذا لا تفتحون الغدد وتخرجون منها الخلايا المجنونة ؟
قال الطبيب فى بساطة : لا يمكن ··
ـ لماذا ؟
ـ اننا لا نعرف عدد الغدد ··
ـ آه !

ونظرت الى الطبيب فى فزع وقالت : وما العمل ؟ ··
قال في برود : لاشيء ·· ننتظر ··

وهبّت من رقدتها مذعورة وقالت : ننتظر ؟ ننتظر ماذا ؟

قال في هدوء : معجزة من السماء •• أو اكتشاف جديد في الطبّ •• أو ••

ودارت الحجرة فيعينيها مرّة أخرى واختلط السواد بالبياض والإنسان بالجماد والمساحات بالأحجام •• وظهرت لها من حيث لا تدري صورتها وهي طفلة التاسعة من عمرها تســـير في شارع طويل وقد أرادت أن تعرف الى أيّ شيء ينتهي ، لكنها وجدت نفسها فجأة في مفترق طرق كثيرة متعـــدّدة فضلّت طريقها الى البيت •• وأخذت تسير في الشوارع وهي تبــكي حتى عثروا عليها بمحض الصدفة ••

ولما فتحت عينيها لم تجد الطبيب •• وتلفّتت حـــولها في دهشة •• وخُيّل إليها لحظة أنّها كانت تحلم حلمــاً فظيعاً •• وكادت تقفز من السرير منفرحة الخلاص والنجاة •• لـــكن عينيها ارتطمتا بالجدرانالرماديّة وسرير الفحص الجلديّ فعادت اليد الحديدية تقبض على قلبها ••
واختلط عليها الواقع بالحلمفرفعت ذراعها تتحسّس صدرها ولما عثرت أصابعها على الكرة اليابسة الكئيبة تأكّد لها الواقع المشئوم •• وجثم الذهول والحيرة على قلبها وعقلها ••
كيف يمكن أن تعيش وهي تعلم أنّها ستموت ؟ ولــكنّ كل الناس يعلمون أنهم سيموتون ، ولكنّهم لايعلمون متى يموتون ••• وماداموا لايعلمون فهم لايصدّقون •• وماداموا لايصدّقون فهم ينسون •• وماداموا ينسون فهم يعيشون ••

وشعرت بشيء يلتفّ حول عنقها كأنما يخنق أنفاسها فهبّت من رقدتها وجرت الى النافذة وفتحتها •• وملأت صـــدرها من هواء الشارع •• وأعاد لها الهواء الرطب المنعش بعض الحيوية والتفاؤل •• وطمأنتها حركة الناس في الشارع على استمرار الحياة فابتعد عن ذهنها بعض الشيء شبح الموت الكئيب ••

واختطفت معطفهـــــا من فوق سرير الفحص •• وغادرت المستشفى بسرعة دون أن تلقي نظرة على حجـــرة الطبيب •• ومضت في الشارع تلتصق بالناس السائرين تلتمس فيدفئهم

وحماستهم الرغبة في الحياة ·· وتنسى مع اندفاعهم وسرعتهم ذكرى النهاية الرهيبة ·· ووجدت نفسها تجري مع الناس ·
تجري كأنما تريد أن تلحق بقطار أو تصل الى موعد هامّ ، ولم يكن هناك قطار ولا موعد ·· لكنها استسلمت للجري بلا هدف ·· كأنما الحركة في حدّ ذاتها أصبحت هدفاً ··

وأخذت تحرّك ذراعيها وساقيها في الهـــواء في اهتزازات عنيفة تريد أن تسقط عن خلايا عقلها فكرة الفناء البشعة ·· أو تريد أن تفصل عن خلايا صدرها خلايا الموت اليابسة ··

وشعرت بشيء من الراحة إثر ذلك المجهود الكبير · وسارت على مهل تتأمّل الشجر والماء ·· وتملأ صدرها بالهواء الرطب العليل ·· ولمحت زهرة بيضاء جميلة عـلى جانب الطريق ·· فوقفت أمامها تتأمّلها · ولمست أصابعها نسيجها المخملي الناعم فشعرت بنشوة غريبة ·· وقرّبت أنفها تشمّ عطرهـــا الزكيّ فأحسّت بسعادة تغمر قلبها وروحها ·· وتلفّتت حولها مفتونة ·· وأسكرتها زرقة السماء العميقة منعكسة على سطح المـــاء الوادع فجلست على شاطئ البحـــر وخلعت حذاءها ومـــددت جسدها على العشب المبلّل الرطب ··

وتراءى لها وسط الزرقة الفاتنة وجه طـــويل نحيل ·· وملامح هادئة باسمة ·· وعينان زرقاوان عميقتان ·· وأخذت تتأمّل الوجه كما كانت تتأمّله ·· وتغيب في أعمـــاق العينين كما كانت تغيب ·· ويهمس صوتها الحالم باســـمه كما كان يهمس ·· وامتـــدّت يدها بلا وعي الى جيبها وأخرجت ورقة صغيرة وراحت تتأمّل كلماته اليها ·· وقلبت الورقة في يدها وأخذت تتحسّســـها بأصابعها ·· وعاد الى أناملها من حيث لا تدري ملمس الكرة اليابسة في صدرها ·· وجاءتها كلمات الطبيب الكئيبة من مكان بعيد من ذاكرتها · وضغطت أصابعها على الورقة في دهشة ··

كيف تبقى هذه الورقة الصغيرة الرقيقة بينما هي تموت ؟
هذه الورقة الصغيرة تخلد في الحياة بينمـــا هي تزول؟
ونظرت حولها في دهشة وحيرة ··

ولكن هذه الورقة يمكن أن تزول ·· يمكن أن تذيبها ميـاه البحر أو تلتهمها نار المدفأة ··

ولكنّها لا تزول ·· إنّها تتحوّل الى رماد ·· الى مادّة أخرى فحسب ·· وهي ؟ أهي تزول حقاً حين تموت ؟ لا ·· إنّهـــا كالورقة ·· ينحوّل جسدها الى رماد،الى مادة أخرى فحسب · كلّ شيء يبقى دائماً ·· وتقلّبت على العشب النّاعم الرطب ·· وشعرت بضغط الورم تحت صدرها ·· لكنها ابتسـمت في هدوء وقد تضاءلت أمام عينيها فكرة الموت السخيفة ··

لحظة صدق

كلّ شيء في مكانه القديم .. بشكله القديم . كلّ شيء هو هو كما كان دائما ... الأريكة الصفراء الطويلة هي الأريكة . والى جوارها رفّ الكتب الصغير هو رفّ الكتب .. ومن فوقها صورة البحر الكبير هو البحر .. وعيناها هما عيناها تنظران إليّ وتعكسان من حيث لا أدري صورة البحر في هدوئه وثورته وعمقه وغموضه الطبيعي الأبديّ .

كلّ شيء في مكانه القديم . بشكله القديم .. ولكنّ شيئاً ما بدا جديداً .. ونزعت عينيّ من عينيها ورفعتهما الى البحـــر الكبير ثم مررت بهما على الستارة الزرقاء الخفيفة الزرقة كأنّها السماء ..

هذا بيتها .. نعم بيتها .. وليست أوّل مرّة أدخل بيتهــا .. لعلّها العاشرة أو المائة .. لم أفكر في عدد زياراتي لها ..

والأريكة الصفراء .. هي الأريكة الصفراء .. وليست أول مرة أجلس على الأريكة الى جوارها وحدنا .. وحدنا تماما .. إلاّ من ذلك الوجه الذي يطلّ علينـــا من فوق الحائط الرماديّ

دائماً .. من داخل إطاره المربّع .. وفي جبينه خطّ يرسم الأبوة والبنوّة معاً .. والزجاجة الحمراء .. هي الزجاجة ... وليست أوّل مرة أشرب معها النبيذ ..

وهي . هي هي .. بجسدها وشعرها ووجهها وعينيها وكلّ ما عرفته عنها من سذاجة ومكر .. وبراءة وعبث .. وذكاء وشرود .. وقوّةوضياع .. واستقرار وحيرة .. وارادةوفزع وقلق ..

وأنا ... بجسدي ورأسي وشعري وأصابع يدي .

ولكنّ شيئاً ما تغيّر .. أشياء ما تغيّرت .. كلّ شيء تغيّر .

كلّ شيء يبدو كأنه أوّل مرة ..

ما الذي تغيّر ؟ .. بيتها ؟ لا ليس بيتها،فكلّ شيء في مكانه القديم ..

هي ؟ .. لا ليست هي .. كلّ شيء فيها في مكانه القديم .. الكذب في عينيها .. والخداع على شفتيها .. ورداؤها القديم على جسدها .. رداؤها الكئيب الذي تدفن تحته أنوثتها .. حتّى رداؤها هذا لم تغيّره . ما الذي تغيّر ؟! أنا ؟ لا لست أنا .. فأنا اعرف نفسي .. ما من قوّة على ظهر الارض تستطيع أن تغيّرني .. أنا رجلٌ قويّ ناجح ، لم يمنحني أحد القوّة والنجاح،ولكنّي انتزعتهما نزعاً من بين فكّيّ العالم .. وقد كنت في يوم ما صغيراً ضعيفاً فقيراً ، أدميت قدميّ سيراً على الأرض لألحق بالذين يركبون .. وصمّمت على أن الحق بهم .. وقد فعلت .. ولكنّ هذا لا يكفيني .. أريد أن أركب وهم يلهثون ورائي حفاة ، وأقدامهم دامية كما كانت قدماي . ولقد ركبت ، لم أعد أسير على قدمي .. ولكن .. هم يركبون أيضاً .. وأنا لا أريد لهم أن يركبوا مثلي . لا أريد أحداً مثلي .. فإنّ أحداً ليس مثلي .. ولا يجب أن يكون ..

إنّني حين أمشي يفسح لي الرجال الطريق . هذا شيء طبيعيّ .. يجب الاّ يمشي أمامي أحد .. وإنّي حين أريد امرأة فإنّها تركع لي وتعطيني كلّ ما عندها دون أن أعطيها شيئاً .. هذا شيء طبيعيّ .. النساء يجب أن يعطوني دون مقابل .. إنّ مثلي

لا يعطي .. واذا كان لابدّ من أحد يعطي وأحد يأخذ .. فلماذا لا أكون أنا الذي يأخذ ؟

وهذه المرأة الجالسة الى جواري .. أليست هي كبقية البشر .. اذا أعطت لا تأخذ .. واذا أخذت لا تعطي ؟ ..

ولكنّها عنيدة ذكيّة .. يبدو أنها مثلي .. مثلي تماماً .. من نوعي .. من فصيلتي .. إنّها لا تعطي ..

ولكن لابدّ أن أنتصر عليها .. لابدّ أن أجعلها تعطيني .. لابدّ !

وأنا لا أريد أن أشعر أنّني آخذ منها .. لا أريد أن أشعر أنني أغتصبها .. إن الاغتصاب يذكّرني بالشرف وأنا لاأريد أن أكون شريفا .. أريد منها أن تركع عند قدميّ وتعطيني .. بل أريد منها أن تغريني وتتوسّل إليّ كي أقبل عطاءها ..

أنا لم أولد شرّيراً .. كان أبي قدّيساً .. وكانت أمّي راهبة ولكن الحياة هي التي ولدت شرّيرة .. الحياة التي حرمتني وأنا طفل من قطرة دافئة من لبن أمي . من مليم أحمر واحد اشتري به كيساً من اللبّ .. من سنّ ريشة سليم أكتب به شقائي .

هذه المرأة الغريبة الجريئة الوقحة المخادعة ! ما الذي يجعلها تجلس معي في بيتها .. وتشرب معي النبيذ وحدنا ؟

هل تريدني ؟ لا .. وإلاّ فما الذي يمنعها أو ما الذي منعها في كل المرات السابقة ؟

هل تمتحن قوّتها أو أو تمتحن قوّتي ؟

إنّها تنظر إليّ .. تتفرّج عليّ .. تدرس ملامحي .. تحفظ خطوط أنفي .. تدقّق النظر الى أسناني .. حتّى حينما لويت عنقها وأنا أجذبها من شعرها الجامح ، وأهوى برأسها الشامخ تحت رأسي .. وشفتيها العنيدتين تحت شفتيّ .. حتّى في في هذه اللحظة وأنا أكاد أضيع في أوّل قبلة معها كانت عيناها مفتوحتين واعيتين يقظتين .. تتفرّجان علي ! ..

امرأة وقحة جريئة منافقة ! لماذا لم تغب عن وعيها ككلّ النساء ؟ لماذا ؟ .. هذه المرأة الكاذبة التي تلعب بي !

أنا أكذب على كلّ الناس .. وأتفرّج على كلّ النـــاس ..

ولكنّ هذا حقّي .. هذا طبعي وأنا حرّ .. ليس من حقّ أحد أن يناقشني ..

ولكن أن تكون هناك امرأة مثلي ؟ .. تمارس من الحرّية ما أمارسها ؟ .. تمارس من الكذب ما أمارسه ؟ .. هذه المرأة يجب أن تُسحق ! وإنّي لقادر على سحقها ..

هذه العنيدة المتكبّرة ! سأعلّمها من أنا ! سأجعلها تذكّرني دائماً .. وكلّما ذكّرتني نفذ الخنجر المسموم الى قلبها من جديد .. الخنجر الذي طعنت به كرامتها وأنوثتها وشخصيّتها ..

شخصيّتها ! وهل هناك امرأة لها ما يسمّى بالشخصية ؟ إنهنّ جميعاً نساء لا يخلصن إلاّ للرجل الذي يخون .. ولا يخنّ إلاّ الرّجل الذي يخلص .. نساء ! ولكن كيف عرفت ذلك ؟ كيف عرفت ذلك ؟ كيف عرفت هذه الحقيقة ؟ .. عرفتها منها .. تلك التي لا أنساها أبداً ، تلك المرأة الوحيدة التي أخلصت لها فكانت هي الوحيدة التي خانتني ! لماذا لا أنساها أبداً ؟ لماذا ؟ ، ألأنّها هي الوحيدة التي رفضتني ؟ أم لأنّها الوحيدة التي رفضتني ؟ أم لأنّها الوحيدة التي لم تعطني فرصة لكي أرفضها ؟

إنّها تنظر إليّ .. وفي يدها كأس النبيذ .. وإنّي أجلس الى جوارها .. في بيتها .. وكلّ شيء في مكانه ..

ولكنّ هناك شيئاً جديداً .. أين ؟ .. أين ؟ .. في صورة البحر ؟ على رفّ الكتب ؟ .. على الحائط الرماديّ ؟ .. في كأس النبيذ ؟ في عينيها!؟ إنه في عينيها العنيدتين المخادعتين .. نعم في عينيها .. شيء جديد ، شيء غريب ، شيء نديّ طليّ يشبه الدموع .. يشبه الصدق !

الصدق ؟ كيف تراودني أنا هذه الكلمة ؟ أو كيف تراودها هي ؟ وهل يمكن لعينين أن تجمعا بين الصدق والكذب في وقت واحد ؟

هل أصدّقها ؟ كأنّما هي تحبّني .. ياللمرأة الغريرة !

كانت تريد أن تخدعني فأحبّتني ..

ولكن هل يمكن لي أن أصدّق نظراتها ؟ لا .. إنّها تكذب . ياللممثّلة القديرة ! إنّ في عينيها كذباً كبيراً ! وهل توجدامرأة تعرف الحبّ ؟

كم كنت أودّ أن تصدق .. تصدق لحظة واحـدة .. أريد أن أشـعر بحبّ حقيقيّ .. أريد أن أكون شريفاً .. إنّ في أعماقي طاقات كبيرة من الشرف .. والحبّ .. والصـدق .. ولكن لمن أعطيها ؟ لمن ؟ من ذا الذي يستحقّ ؟

أنا . أنا أفكّر في العطاء ! أنا أفكر في الحبّ .. والشرف ... والصدق ؟ ..

هل أنا ؟ هل أنا أتغيّر ؟ أتغيّر ؟ كيف .. متى ؟ لماذا ؟ آه .. لقد تعبت .. تعبت من الكذب .. من الخـداع .. من النفاق .. من الكراهية .. إنّي لأحنّ الى الصـدق ... الى الحبّ ! ..

إنّها تحبّني .. نعم تحبّني .. أرى في عينيها الصدق ... الآن .. هذه اللحظة إنها تقترب منّي .. اقتربت .. ولامست يدها يدي .. شيء ما عنيف يدفعني نحوها .. لكن شيئاً آخر أكثر عنفاً ينزع يدي من يدها ..

— لا .. لن يحدث شيء .. إنّي ذاهب !

— لا تذهب .. سأعطيك كلّ شيء !

— لا أريد منك شيئاً ..

— ولكنك كنت تريد .

— كنت ..

— أنت كذّاب ..

— نعم أنا كذّاب ..

ونزعت نفسي من بين ذراعيها الدافئتين وجريت الى الباب .. يجب أن أهرب هذه اللحظة قبل أن تذوب إرادتي .. يجب أن أهرب قبل أن أمسسها ..

وفتحت الباب وخرجت .. وسرت في الشارع البارد .. ما هذا الذي فعلت ؟ ألم أكن أريدها ؟ ألم أكن أدبّر الخطط

لأنالها ؟ ثم حين تواتيني اللحظة أزهد ؟ ولكنّي أحسست بشيء جديد ·· شيء يشبه الصدق في عينيها · وشيء يشبه الصدق في أعماقي ·· كانت لحظة خاطفة كالبرق حملتني من الصدق الى الحبّ ومن الحبّ الى النبل ومن النبل الى الزهد ··

ولكن لن أعود اليها أبداً ·· فأنا لا أستطيع أن أكون صادقاً دائما لا أستطيع أن أكون نبيلاً دائما ·· لقد حملتني الحياة الشريرة بفطرتها في طريقها · وقطعت شوطاً بعيداً عن الصدق ·· ولا أستطيع أن أعود أدراجي ·· لا أستطيع ·· لقد بعدت كثيراً عن البداية ·· واقتربت كثيراً من النهاية ··

سأنساها ·· بعد يوم ·· بعد سنة ·· ولكنّي سأنساها حتماً في دوّامة حياتي ·· ولكن شيئاً واحداً لن أنساه ·· إنّني رغم أنفي كنت قادراً على أن أعيش لحظة صدق كاملة ضحّيت فيها برغبة عذّبتني فترة طويلة ··

نام الرجل بعد العشاء

نظر في وجوه الناس وهو جالس على كرسيّ مذهّب عالٍ يرتفع عن الأرض ارتفاعاً جعل رؤوس الناس في مستوى قدميه .. وعجب كيف ينظر النـــاس الى قدميه في احترام بالغ مع أنه نسي أن يلبس الحذاء .

كيف نسي أن يلبس حذاءه ..

كان هذا السؤال الذي يجوب في أنحاء نفسه ويكاد يسلمه الى نوع من الذهول يطغى على ذلك الحزن الشـــديد الذي كان يشعر به كلما نظر الى قدميه الحافيتين وهما تستندان على قاعدة الكرسيّ الموشاة بالذهب .

وشعر بالعرق يتصبّب من وجهه حين رأى أصابع قدميه متسخة وأظافرها ســـوداء، وتعجّب كيف نسي أن يلبس الحذاء قبل أن يخرج من بيته، مـع أنه تعـــوّد على أن يلبسه كلّ يوم منـــذ خمسة وأربعين عاماً . .واشتدّ عجبه حين رأى الناس ينظرون الى قدميه في احترام وإجلال .

وأخذت نظراته المتسائلة الذاهلة تنتقل في قلق من قدميـه الحافيتين الى وجوه الناس الخاشعة محاولاً أن يكتشف الحقيقة

ويعرف من الأعمى ٠٠ عيناه أم عيون الناس ٠٠ لكنه لم يستطع ٠٠ وكيف له وحده أن يعلم ؟ لابدّ من حكم ٠٠ واستبدت به الرغبة في معرفة الحقيقة فاشار باصبعه الصغيرة الى رئيس حاشيته فانتفض الرجل للإشارة وترك مكانه على رأس الصفوف وأسرع اليه ومثل بين يديه راكعاً ٠٠

وأشار في ترفع الى قدميه وقال بلهجة ملكية آمرة :

ـ انظر !

واهتزت عينا الرجل في خوف ونظر الى قدميـه وقال في خشوع :

ـ نظرت يامولاي !

فقال في غضب : انطق !

وارتجف صوت الرجل وهو يقول : ماذا تريد مني أن أقول يامولاي ؟

قال في ثورة : قل ماتراه عيناك !

وبربش الرجل بعينيه الفزعتين وقال : أرى صاحبتي السعادة قدميك يامولاي ٠

وصاح في غضب شديد : هل أنت أعمى ؟ ألا ترى شيئاً غريباً بالنسبة لهما ؟

وقال الرجل مرتعدا : غريبا ؟

لا ٠٠ لا ٠٠ يامولاى !

وأحس ببعض الارتياح فهدأت أعصابه قليلا ثم قال له :

ـ هل يعجبك لون حذائي ؟

وشعر الرجل ببعض الطمأنينة والثقة وقال في حماس :

ـ كيف لا يعجبني يامولاي ! إنه رائع ٠٠ أكثر من رائع !

وابتسمت أساريره وجهه ثم قال له : اذهب ! ٠٠ فذهب ٠

وجلس على كرسيّه المذهّب في كبرياء لكنّه عاد فرأى قدميه الحافيتين فساوره الشك مرّة أخرى ٠

كيف له أن يتأكد ؟ لابدّ من حكم آخر ٠

وأشار الى رجل ثانٍ من رجال حاشيته وسأله نفس الأسئلة فأجاب نفس الإجابة ٠٠ فسأل رجلاً ثالثاً ورابعاً وخامساً حتى سأل كل رجال حاشيته ٠٠ وكان جواب الجميع واحداً ٠

الى هنا تبدّد شكه .. وأيقن أنّه يلبس حذاءه .. وأن نسيان الحذاء لم يكن إلاّ وهماً صوّره له خياله المرهق .. وطاف الى سطح ذاكرته ذات القلق الشديد الذى استولى عليه ليلة الأمس،فجعل خياله مرهقاً .. بالرغم من الفراش الوثير الدافئ .. وبا لرغم من مروحة ريش النعام الناعمة التي كانت ترفرف على وجهه طول الليل .. تمسك بها أنامل دقيقة رقيقة ..

وكان من حين الى حين يمدّ أصـــابعه فى الظـلام ويتحسّس الجسد الحريريّ ويضمه اليه فى قوة ..

ويسمع الصوت الناعم وهو يقول :

ــ هل أدلك صاحبتي السعادة قدميك يامولاى ؟

فيقول وهو مغمض العينين فى تراخٍ وكسل :

ــ نعم .. نعم .. دلكيهما ياامرأة .

وكان من الممكن أن تمرّ الليلة على خير كأيّة ليلة سابقة لولا أنّه تذكّرهافتح عينيه .. ونظر في وجـــه المرأة ثم صـــاح غاضباً :

ــ اذهبي أيتها الجارية ! كفى !

ونادى على رئيس الحاشية فى غضب شديد وقال :

ــ أين هي ؟

وارتجف الرجـــل في هلع وقال : لقـــد رفضت أن تأتي يامولاى !

وزمجر فى غضب : رفضت !؟ كيف هذا ؟ ألم تقل إنّ هذه هى رغبة الملك ؟

قال : نعم يامولاى .. ولكنّها رفضت ..

وصاح في ثورة : ألم تقل لها إنني أستطيع أن أستولي على بيتها وأطردها من مملكتي ؟

قال : نعم يامولاى .. ولكنّها رفضت ..

وانفجر غاضباً : ألم تقل لها إننى أستطيع أن أرســـل لها جنودي فيجرّوها من شعرها ويسوقوها الى المشنقة ؟

قال : نعم يامولاى .. ولكنّها رفضت ..

وانتفض حانقا : كيف هذا ؟ امرأة فى أرضي تعصى أمري ؟!

إني ذاهب اليها بنفسي .. أعدّ لي الجواد ..

قال : سمعاً وطاعة يامولاى ..

امتطى الملك الجواد وسار في الطريق الطويل المظلم .. ورأى باب البيت مغلقاً والنوافذ مشدودة .. وأطلّ له البواب من فتحة صغيرة في الباب ..

فقال له بلهجة ملكية آمرة : افتح ! أنا الملك !

وفتح الرجل البـــاب وهو يرتعش .. ونزل الملك من فوق الجواد وسار في ممرّ البيت المظلم حتى رأى بصيصاً من نور يطلّ من احدى الحجرات .. واقترب متخفّياً ورأى من خـــلال الباب المرأة الحسناء مستلقية على أريكة خضراء والى جوارها رجل .. لا .. في أحضانها رجل !

ووقف الملك مشدوهاً .. واستطاع رغم ذهوله أن يتعرّف على وجه الرجل .. وعرف أنه رجل من الشعب ..

وعاد الملك متخفّياً الى قصره كمـــا جاء،وجمع رجال الحاشية وقرّر إعدام الرجل ومثول رأسه بين يديه على صينيّة من الذهب

وجاء رأس الرجل .. ونظر اليه الملك متشفّياً وقال له :

ـ أنت الذي كنت تقف في طريقي أيها الصعلوك !

وتمدّد الملك في فراشه الوثير الدافئ وأمر باحضار المرأة .

وجاء الرسول مرتجفاً يقول : لقد رفضت يامولاي ! ..

وانتفض الملك واقفاً في غضب وامتطى جـــواده .. وذهب اليها .. ورأى نفس البصيص من النور .. ينبعث من نفس الحجرة .. ومن خلال نفس الباب رأى المرأة الحسناء مستلقية على الأريكة الخضراء وفي أحضانها رجل !

فعاد كالمجنون وأمر برأس الرجل الثـــاني على صينية من الذهب .. ثم الثالث .. ثم الرابع .. ثم الخامس حتى نفدت صواني القصر ..

ووضع الملك رأسه بين يديه حائراً ثم أرسل في طلب أكبر حكماء البلد ..

وجاء الحكيم ومثل بين يدي الملك فحـــكى له الحـــكاية .. وارتسمت على شفتي الحكيم بسمة أهل العلم والفلسفة وقال :

ـ هل جاءت المرأة الى هنا يامولاي ورأت قصورك وكنوزك وعرشك وحاشيتك وسطوتك ؟

قال الملك : لا ..

قال الحـــكيم : إنّها لا تعرفك إذن أيها الملك .. ولا تعرف كنوزك وقوّتك وعظمتك ..

قال الملك : وماذا ترى ؟ ..

قال الحكيم : أرى أن تدعوها الى هنـا لترى بعينيها فيبهرها هذا الملك العظيم يامولاي ولا تملك ألا أن تخضع لك ..

وسعد الملك بهذا الرأى وأمر باقامة حفل كبـير ودعاها الى قصره ..

وجلس الملك على كرسيّه المذهّب العالى وطاف الحكيم بالمرأة يطلعها على كنوز الملك وقصوره وحاشيته وقوّته ثم ذهب بها الى الملك ..

وانتفخ الملك على عرشه الرفيع العـــالي الذى يرتفع عن الارض ارتفاعاً يجعل رؤوس الناس في مستوى قدميه ..

وقال لها : لماذا لم تطيعيني؟ ..

ونظرت اليه في دهشه ولم تردّ ..

وصاح غاضباً : ماالذي يدهشك ؟ لماذا لا تردّين ؟

وقالت في هدوء : يدهشني أن أرى قدمي الملك حافيتين !

وانتفض الملك فوق عرشه مذعوراً ..

وفتح عبد الإمام عينيه فرأى وسادته القذرة تحت رأسـه وسمع شخيرا الى جواره .. ورآها راقدة كالجثة الهامدة كما كان يراها كل ليلة منذ عشرين عاما ..

ولكزها في كتفها وقال في غضب :

ـ ناوليني كوباً من الماء ياامرأة ..

وزمجرت المرأة وهى تحلم ثم واصلت شخيرها ..

فلكزها مرة أخرى وصاح غاضباً :

ـ قومي ياامرأة واسـقيني .. كتم الله أنفاسك كما كتمت أنفاسي بعشائك الدسم !

وتقلبت المرأة في فراشها وزمجرت ثم قامت تستند على عمود السرير الاسود وقالت لنفسها في ضجر : لماذا لا تسقي نفسك أيها البغل !.. وذهبت لتأتي له بالماء ..

ليلى تتزوّج

مسرحية من فصل واحد

الشخصيات

ليلى : فتاة فى السابعة والعشرين من عمرها · متوسطة الجمال رغم إسرافها الشديد في الزينة والماكياج ·· صحفيّة ناشئة ، تستعدّ لحفل عقد قرانها ··

ديدي : خالة ليلى · امرأة فى الاربعين ·· بدينة غير مثقّفة ولكنّها ثرية تحاول أن تبدو «مودرن» ··

سهير : فتاة فى العشرين طالبة بكلية الطب · ابنة ديدى · جميلة بالرغم من بساطتها ··

محمود : شاب فى الرابعة والثلاثين ·· مهندس ناجح ·· خطيب ليلى ··

المنظـــر :

حجرة استقبال يبدو على أثاثها الفخامة والثراء دون البساطة في منزل ديدى ·· ليلى تقف فى وسط الحجرة تلبس فستانا أبيض طويلا وديدى تدور حولها تنظر الى الفستان ··

ديدى : جنان ! ياليلى جنان ! ألم أقــل لك إن هذه الخياطة ممتازة ؟ ..

ليلى : (فى نشوة وهى تنظر الى نفسها فى المــرآة) ذوقك ياتانت ديدى المدهش . هو انت تعرفى حد الا اذا كان ممتازا .

ليلى : (تقبـــل نحو ديدى فى امتنـــان) : لا أدرى كيف أشكرك يا تانت ديدى ..

تانت ديدى : الآن انتهينا من الفســتان ، بقيت بطاقات الدعوة ..

ليلى : نعم ، بقيت بطاقات الدعوة ..

ليلى : (تجرى الى حقيبتهـــا وتخـــرج منها ظرفا فيـــه البطاقات) ..

أنظرى ياتانت ديدى .. لقد طبعت خمسين بطاقة ..

ديدى تمسك بطاقة تتأملها قليلا ..

ديدى : مدهش .. والآن من ســـتدعين من صــــديقاتك وأصدقائك ..

(ليلى تفكر بعض الوقت ثم تمسك ورقة وقلما وتكتب بعض الاسماء) ..

ليلى : أولا فيفي وزوجها ..

(ديدى تقترب منها وتجلس بجوارها) ..

ديدى : فيفي وزوجهـــا ؟ من همــــا ؟ انت لم تذكرى لى اسميهما من قبل أبدا ..

ليلى : ان فيفي امرأة أنيقة جداً رأيتها مرّة واحدة في الجريدة وعرّفني نائب رئيس التحرير عليها ودعوتها لتشرب القهــوة فى مكتبي .. وجاءت وجلست معي أكثر من ربع ساعة ..

ديدى : وزوجها ؟

ليلى : وزوجها مدير احدى الشركات الكبيرة .. وســـوف يكون وجودهما مشرّفاً لى جدا ..

ديدى : عال جداً ومن غيرهما ؟ ..

ليلى : سعاد هانم وزوجها طبعا ..

ديدى : طبعـــا .. ســـعاد هانم ســـيّدة مجتمع درجة

أولى ٠٠ إنها تعرف اللغة الفرنسية وهي سكرتيرة جمعية إنقاذ المغلوب على أمرهم ٠٠ ولكن هل تظنين أنها ستأتي ؟

ليلى : طبعا ٠٠ إنها تعبد شيئاً اسمه صحفي أو صحفية والا كيف تنشر أخبارها في الصحف ؟٠٠ لقد كلمتها مرة في التليفون وكانت تكلمني بلهجة شديدة ولما عرفتها أنني صحفية تغيرت لهجتها وكادت تأخذني بالحضن لولا التليفون ٠٠

ديدى : وزوجها ؟

ليلى : لا ٠٠ إن زوجها ليس شخصاً مهماً ولكنه وسيم جداً وسعاد هانم تسحبه معها كالكلب الأليف في كل مكان ٠٠

ديدى : عال جدا ، ومن أيضا ؟

ليلى : وعزمي وزوجته ٠٠ إن عزمى هو محرر قسم الأخبار فى الجريدة ، وإن حضوره الحفل يضمن لنا أنه سينشر الخبر ثاني يوم فى الجريدة ٠٠

ديدى : عال جداً ٠٠ تعجبنى أفكارك ياليلي ، لقد ورثت الذكاء من خالتك ديدى ٠٠ تصورى ياليلى أنني أحس أنك تشبهيننى أكثر من ابنتى سهير ٠٠

ليلى : طبعا ياتانت ٠٠ أصل سهير ورثت أباها ٠٠

ديدى : على رأيك ٠٠ لقد ورثت عمتها زكية من سوء حظى تصورى ياليلى بقى لى أكثر من عشرين سنة أحاول أن أرقي أسرة زوجى بلا فائدة ، الفلاح يفضل طول عمره فلاح ٠٠ ان التعليم لم يغير من طباع زوجى شيئا ٠٠

ليلى : معلهش ياتانت ديدى ٠٠ على العموم ان حظك أفضل من حظ أمى ٠ إن زوجك رجل غني على الأقل ٠٠

ديدى : يانهار أسود ، كان ناقصاً ان يكون فقيراً حتى يكون مصيبة من مصائب الزمن ٠٠ إننى أكره الفقر كالعمى ٠٠

ليلى : ولكن أمي تحب الفقر ٠٠

ديدى : غبية ٠٠ طول عمرها غبية مع أنها أكبر منى ثلاث سنوات ٠٠ لا أدرى كيف وافقت على أن تتزوج هذا الموظف الفقير ٠٠

ليلى تسكت قليلا وتشرد ٠٠

ديدي : (تربت على كتفها) : **لاتحزنى ياليلى ·· إنّي آسفة أن أقول ذلك على أبيك ··**

ليلى : أبداً ·· أنا لا أفكّر فى ذلك ·· ولكنى أفكّر كيف سأقدّم أبي وأمّي الى خطيبى ·· إنّ وجهى يلتهب من الخجل كلما فكّرت فى ذلك ·· بل إنّني لا أدرى كيف سأقيم الحفل فى شقتنا المتواضعة فى تلك الحارة القذرة ··

ديدي : لاتحملي همّاً يا ليلى ·· إنّ بيتي تحت أمرك ··

ليلى : (تنظر اليها فى امتنان وتعانقها) : أشكرك يا تانت ديدى ·· لا أدري ماذا كنت أفعل بدونك ·· ولكن ماذا أفعل في أمّي ؟ ··

ديدي : يمكنها أن تلبس واحداً من فساتيني ··

ليلى : ولكنّها مهما لبست فإنّها لا تعرف كيف تتكلّم ·· ياليتك كنت أمى !

ليلى : (تكلّم نفسها) : آه ، لو كان الناس يختارون أباءهم وأمّهاتهم ··

يدقّ جرس التليفون ··

تجرى ديدى اليه وترفع السماعة ··

ديدي : ألو أهلا كاميليا · ليلى موجودة · حاضر أناديها .

تنادى على ليلى : ليلى كلّمى كاميليا ··

ليلى (تأخذ السماعة فى امتعاض) : ألو ··

ــ الله يسلمك ··

ــ ها ها ها ··

ــ أبدا ··

ــ سمعت من من ؟

ــ تقريبا ··

ــ ان شاء الله ··

ــ أيوه ··

ــ مع السلامة ··

ديدي : ما هى الحكاية ؟ ألم تدعي كاميليا ؟

ليلى : طبعا لا ‥ هل أنا مجنونة لأدعوها ‥

ديدي : لماذا ؟ إنّي أعرف أنّها أعزّ صديقة لك ‥ لقد كنت لا أسمع منك إلاّ اسمَ كاميليا،كاميليا،وكنت تقضين معها الليل والنهار ‥ هل حدث شيء ؟

ليلى : أبدا لم يحدث شيء ٠ كانت كاميليا صديقتي صحيح، ولكن ذلك كان قبل الزواج،أما بعد الزواج فيجب عليّ أن اختار صديقات أخريات ‥

ديدي : وصديقاتك القديمات؟‥

ليلى : اختار منهنّ من يناسبن حياتي الجديدة ‥

ديدي : وكامينيا ألا تناسب حياتك الجديدة ؟

ليلى : لا ‥

ديدي : لماذا ؟

ليلى : ان كاميليا غير متزوّجةوهذا يجعلها خطرة على حياتي، ‥ كما أنّها جذابة ولها عينان ساحرتان ، زيادة على أنها ألمع منّي في الصحافة واسمها معروف عن اسـمي ‥ لا لا يمكن لزوجي أن يعرفها أو يراها،من يدري؟ربما يعجب بها ، بل هذا مؤكد ‥

ديدي : انت ذكيّة ياليلى ‥ هذا هو عين الحكمة والعقل ٠ ان ابنتي سهير ليس لها نصف ذكائك مع أنها في كلية الطب ٠

ليلى : الحياة شيء آخر غير الدراسـة في الكلّيات ‥ إنّني أفهم الحياة لأنني عشت فيهاوقاسيت منها الكثير وأعرف مقالب الناس ولا أطمئنّ لأحد ‥

ديدي : لك حقّ ياليلي ‥ وأظنّ أن كاميليا كانت تعـرف كلّ أسرارك و ‥ وقصة حبك مع خالد ‥

ليلى تسكت قليلا ويظهر على وجهها الوجوم ‥

ليلى : طبعا ‥ لم تكن نخفي شيئا عن بعض ‥

ديدي : لا ياليلى،اقطعي صلتك بها نهائيا ‥

ليلى : هذا ما فعلته الآن ‥

ديدي : كيف ؟

ليلى : لم أقل لها إننى سأتزوّج .. ولكنّها فاجأتني وقالت إنّها سمعت من بعض الزملاء فى الجريدة أنّني سأتزوّج وسألتنى عمّا اذا كان العريس هو خالد فقلت لها إنّه هو ..

ديدي : كذبت عليها ؟

ليلى : نعم .. كان لابدّ أن أفعل ذلك ..

ديدي : ولكنها ستعرف الحقيقة غداً ..

ليلى : وماذا يهمنى منها ؟

ديدي : ربما تحقد عليك لانقلابك عليها وتحاول أن تنتقم منك ..

ليلى : لا .. إنك تعرفين كاميليا .. إنّ قلبهاطيّب جدّاً .. لايمكن أن تحقد على أحد أو تفكّر فى الانتقام من أحد مهما أساء اليها .. لقد كنت أستغلّ طيبتها الزائدة كثيراً ..

ديدي : إنّها ليست طيّبة ، انها غبيّة .. إنّ الطيبة عندي هى الغباء سواء بسواء ..

ليلى : (تضحك) : يعجبنى ذكاؤك الشديد ياتانت ديدي ..

ديدي : والآن نكتب أسماء بقيّة المدعوّين ..

ليلى : (تمسك الورقة): نعم .. الاستاذ عزيز وزوجته ..

ديدي : من هو الاستاذ عزيز ؟

ليلى : إنه رئيس التحرير عندنا ..

ديدي : أوه .. طبعاً طبعاً،هذا أول المدعوّين،وكذلك كلّ الشخصيات البارزة عندكم فى الجريدة وزوجاتهم ..

ليلى : طبعا وزوجاتهم .. لن أدعو رجلاً وحده وإلاّ ظنّ محمود أنه كان صديقى قبل أن أتزوّجه ..

ديدي : هذا حقّ .. كونى حريصة جدّاً ياليلى ..

ليلى : لا تخافى عليّ ياتانت ديدى ..

تدخل سهير ابنة ديدي .. تسلّم على ليلى وتجلس وتنظر الى الأوراق على المنضدة ..

سهير : ما هذا ؟

ديدي : بطاقات دعوة فرح ليلى .. عقبالك يا سهير ..

سهير : لا ٠٠ أنت تعرفين يا أمّي أنّ الزواج ليس هو أملي في الحيــاة ٠٠ إنّ أملي هو أن أحصلّ عــلى بكالوريوس الطبّ واشتغل ٠٠

ديدي : ثم تتزوّجي ٠ إنّ نهاية البنت هي الزواج ٠ أليس كذلك يا ليلى ؟

ليلى : طبعاً ٠٠ البنت خلقت للزواج ٠٠ أقسم لك يا تانت ديدي أنني كنت أجلس في مكتبي وأفكر طول الوقت في أنني بلغت السابعة والعشرين ولم يتقدم أحدٌ للزواج مني ٠٠

وكنت كلما تصوّرت أنّني سـأبلغ الثلاثين دون أن أتزوّج تدور رأسي وأحسّ بالإغماء ٠٠

سهير : لا ياليلى ٠٠ لاتحكمي على الأمور من وجهة نظـرك أنت ٠٠

ليلى : إنّني أتكلّم الصراحة وأقول الحقيقة ٠٠ لقـــد كنت أتمنّى في كثير من الأحيان ألاّ أكون تعلّمت واشتغلت وإنّمـــا تزوّجت وأنا في السادسة عشرة من عمري ٠٠ تصـوّري كان من الممكن أن يكون عندي طفل في الحادية عشرة من عمره الآن ٠٠ تصوّري !

ديدي : هذا صحيح ٠٠ إنّكن تضيّعن شبابكنّ وأجمل سنيّ حياتكن في الدراسة والكليات ٠٠

سهير : إنّك لم تتعلّمي يا ليلى بكلّ أسف ٠٠ فالتعليم ليس أن تتخرجي من كلية الصحافة وتصبحي صحفية ٠٠ إن التعليم هو أن تتخلّصي من عقد المرأة الجاهلة القديمة التي كانت تعتقد ان لا حياة لها إلاّ في ظلّ الرجل ٠٠

ليلى : وهل يمكن للمرأة أن تعيش بلا رجل ؟

سهير : نعم ٠٠ يمكن للمرأة المثقّفة العاملة أن تعيش بغـير الرجل، أي أنّها تسـتطيع أن تأكل وتشرب وتلبس وتســكن وتمارس الحياة بدون الرجل ٠٠ وكانت لا تستطيع ان تفعـل ذلك إلاّ من خلال عَرَق الرجل وعمله ٠٠ كان الرجل يطعمهـا فكان لابد له أن يحكمها بأمره ٠٠ أما اذا أطعمت نفسها فإنّهـا تصبح مثله، تلتقي به حين تشاء راضـية، بدلاً من أن تلتقي به

حين يشاء هو مرغمة كارهة ٠٠ واذا أساء اليها تركته دون أن تخشى الجوع والعري ٠٠

ديدي : والزواج ٠٠ هل تستغني المرأة عن الزواج؟٠٠

سهير : لا ٠٠ أنا لا أقول ذلك ٠٠ ولكنّها تتزوّج لأنّها تريد أن تعيش مع رجل تحبّه وتنجب منه أطفالا،ولا تتزوّج لأنّهـا تريد أن تأكل وتشرب وتلبس ٠٠ إنّ الزواج في الحالة الاولى وسيلة لممارسة الحبّ الكامل،وفي الحالة الثانية غاية امرأة عاطلة تبحث عن عائل ٠٠

ليلى : لقد كنت أقول هذا الكلام ياسهير حينما كنت طالبة في مثل سنّك ٠٠ ولكنّني بعد أن خبرت الحيـاة عامّة والرجال خاصّة ومارست حرّيتي على أوسع نطاق،أقول لك إن الفتـاة التي لا يكون الزواج غايتها تضلّ الطريق وتشقى كثيراً ثم يأتي عليها يوم تتمنّى فيه الرجل أيّ رجل يقول لها أتزوّجك ٠٠:

أنا معك في أن المرأة يجب أن تتحرّر من الرجل،ولـكن كيف تتحرّر وهو لا يريد أن يحرّرها؟٠٠ إنّ حياة المرأة في يدالرجل زواجها طلاقها شرفها عارها كرامتهـا،كل شيء في يد الرجل وهو يعطيه للمرأة متى أراد ٠٠ لنفرض أنك تخرّجت في كلية الطبّ وأصبحت دكتورة مشهورة ناجحة،هل يمكنك أن تختاري زوجك ؟

سهير : نعم ولماذا لا أختاره ؟ ٠

ليلى : لأنّه لن يختارك ٠٠ إنّ الرجل هو الذي يختـار وهو دائماً لا يختار المرأة التي تختاره ٠٠ إذن سـيتركك الرجل الذي تريدينه ٠٠ ولن تجدي أمامك إلاّ حلّين : إما أن تجري خلفه وتهدري كرامتك ولا تفوزي به أيضا ٠٠ وإما تنتظـري الرجل الذي يختارك وترضي به كارهة ٠٠ وهو نفس الوضع الذي كانت عليه المرأة قبل أن تتعلّم وتعمل ٠٠

سهير : ان هذا ضعف ياليلى ورثته المـرأة من سنيّ الذل والجهل والعبودية التي عاشـتها ٠٠ ويجب عليك أن تغـيّري أفكارك ٠٠

ليلى : حاولت أن أغيّرها كثيراً ولكنّي تلقّيت صدمات كثيرة ، كادت تهلكني ،وأخيراً سلمت بالواقع . إن مجتمعنا ياسهير لازال ينظر الى المرأة على أن مكانها وراء الرجل وليس الى جواره ..

ديدي : وإن المرأة نفسها تحبّ من الرجل أن يكون أمامها .

سهير : أوه .. لا فائدة من المناقشة. إنّ الزمن وحده كفيل بتغيير نظرة المجتمع وعقليّة كلّ من الرجل والمرأة .. ..

ليلى : وحتى تتغيّر عقليّة الرجل والمرأة يجب أن نعيش فى الواقع ..

ليلى : (ساخرة) .. سوف يتغيّر رأيك بعد سنوات قليلة .

سهير : لا ..

ليلى : لا لا .

ديدي : ان رأسها ناشف كرأس أبيها تماماً ..

يدخل فى هذه اللحظة محمود خطيب ليلى ..

ديدي : أهلا محمود بك اتفضّل .. أهلاً وسهلاً ..

ليلى : أهلاً محمود ..

محمود يصافح ليلى وديدى وسهير ..

محمود : أهلا بكم .. كيف حالك ياليلى ..

ليلى : الحمد لله .. كيف أنت

محمود : الحمد لله ..

ديدي : فاتتك مناقشة طريفه جداً عن الرجل والمرأة ..

سهير : فكرة جميلة .. لماذا لا نأخذ رأى الاستاذ محمود بصفته رجلاً ؟

محمود : (ضاحكاً) إنّنى سأتعصّب للرجل طبعاً ..

سهير : لا أعتقد ذلك. الآن ماهو رأيك: هل الزواج بالنسبة للمرأة وسيلة أم غاية ؟! ..

محمود : ان المرأة هى التى تجيب على هذا السؤال ، لكني أستطيع أن أحكم من تجاربى فى الحياة أن المرأة مهما تعلّمت فان غايتها الزواج .. إنّها تفكّر في الزواج قبل الحبّ ..

ليلى : لأن الرجل لا يمنحها حقّها في الحبّ ، إنّه لا يعترف ولا يحترم أيّ عاطفة تربطه بالمرأة ليست هى الزواج ..

محمود : ولماذا لا تأخذ هى حقّها فى الحبّ بيدها ، لماذا؟!

تنتظر من الرجل أن يمنحها أو يعترف أو لا يعترف ..

سهير : هذا صحيح .. إنّ المرأة يجب أن تأخذ حقّها بنفسها .. ان الرجل لا يملك حقّ الإعطاء أو المنع ..
القاضي وهو الحاكم وهو المشرع وهو صاحب الحق وهو المشرف على التنفيذ .. ان مجتمعنا مجتمع رجالي مائة فى المائة ..

سهير : كان ذلك في القديم الغابر ..

ليلى : ولا زال حتّى الآن .. إنّ علاقة الرجل بالمرأة لازالت تربطها القوانين القديمة التى كانت قائمة منذ مئات السنين ..

محمود : اذا كان ذلك صحيحاً فإنني ألوم المرأة مهما تعلّمت، فانها تحنّ دائما الى العبوديّة .. الى أن يكون الرجل سـيّدها وحاميها ..

ليلى : هذه هى طبيعة الأنثى يامحمود .. لا يمكن أن ننكر الطبيعة ..

سهير : لا ليست الطبيعة .. إنّها مسألة عادة . لقد تعوّدت المرأة أن تجد لذّتها فى الضعف والذلّ وتعوّد الرجل أن يجد لذّته في البطش والسيطرة ..
محمود : اذا غيّرت المرأة عادتها فإنّ الرجل لا يجد مفرّاً من تغيير عادته ..

ليلى : ان المرأة لا تستطيع أن تغيّر عادتها ..
سهير : بل تستطيع ..
محمود : هذا يتوقّف على المرأة اذا كانت قويّة أم ضعيفة .
سهير : المرأة القوية تستطيع .
ليلى : إنّ المرأة تبدأ قويّة فاذا مادخلت التجربة خرجت ضعيفة .. إنّ الواقع كفيل بإضعاف أيّ امرأة متحمّسة للتغيير ..

سهير : ليس هذا صحيحا ..
ليلى : انت لا تستطيعين أن تحكمي يا سهير .. إنّك لم تدخلي التجربة بعد ..

محمود : وهل أنت دخلت التجربة ياليلى ؟
ليلى تفكر لحظة ثم تتظاهر بالبراءة الشديدة .

ليلى : طبعا لا ..
تمر لحظة سكون ..
محمود : انت لا تستطعين أن تحكمي إذن ..
ليلى (توافقه في بساطة) : فعلا أنا لا أستطيع أن أحكم .
محمود ينظر اليها متشككا .

سهير : لنفرض أنها دخلت التجربة،هل هذا يضايقك ؟
محمود يفكر وينظر الى ليلى . ليلى تنظر بعيدا عنه .
محمود (في ارتباك) : لا . لا يضايقني .
سهير تشعر أنه يكذب وليلى تفهم أنه يكذب لكنها تتظاهر بتصديقه .
تمرّ لحظة سكون طويلة ..
سهير : أنت لا تقول الحقيقة .

ليلى : لا إنه يقول الحقيقة ، أرجوك ياسهير دعينا من هذه السفسطة التى تضيع الوقت .

سهير تغيب في تفكير عميق .
ديدي : انظر يا محمود بك . هل رأيت بطاقات الدعوة ؟ ما رأيك ؟
محمود : جملية جدا . وما هذه الاسماء ؟ المدعوين ؟
محمود يتأمل الورقة التى بها الاسماء بعض الوقت .
ديدي : ان صديقات وأصدقاء ليلى جميعهم من الشخصيات البارزة .
محمود يواصل قراءة الأسماء بينه وبين نفسه .
محمود : ولكن أين اسم كاميليا ؟ ..
ليلى (في دهشة) : كاميليا ؟ هل تعرفها ؟
محمود : لا،عرفتها اليوم فقط ..
ليلى (في فزع) : اليوم ؟ أين ؟ متى ؟
محمود : مررت اليوم على مكتبك بالجريدة وكنت أظن أنك

هناك ولكنى قابلت زميلة لك تدعى كاميليا ..

ليلى : وماذا قالت لك ؟

محمود:لا شيء . عندما سـألتها عنك رحّبت بى وطلبت لى فنجانا من القهوة وقالت إنّها صديقتك الحميمة ..

ديدي : إنّها تدعى ذلك.إنها ليست صديقه ليلى.إنهـا زميلتها فى العمل فقط ..

سهير : ماذا تقولين يا أمّي ؟

ليلى : كانت صديقتى فى يوم من الأيام،ولكن أخلاقهـا لم تعجبنى فـ ..

سهير : ماذا ؟ اننى أسمع هذا الكلام لأوّل مرة ..

ديدي : اسكتى أنت ياسهير . أنت لا تعرفين شيئا . إذهبي الى حجرتك وراجعى دروسك . لقد ضيّعت وقتا طويلا .

سهير تخرج وقد بدا عليها الغضب والدهشة ..

محمود يطرق الى الارض فى تفكير عميق .

ديدي : قم يا محمود بك،قم لابدّ أنك جائع . هيّابنا نتناول الغذاء . هيا يا ليلى ، دعكما من هذا الكلام الفارغ .

ليلى : ماذا عندك يا تانت ديدي ؟

ديدي : أرانب بالملوخية مدهشة . تفضّل يا محمود بك .

تقترب من محمود وتأخذه من يده . تخـرج ديدي ومعهـا محمود .

ليلى تبقى وحدها وتضع رأسها على يدها فى أسى وتفكير .

تدخل سهير .

سهير : أنا لا أفهم شيئا .

ليلى (ترفع رأسها وتقول في شدة) : لا داعي لأن تفهمى شيئا . ولكن أعلمي أنك مخطئة ! وسـوف تعرفين ذلك بعد عشر سنوات حين تصبحين في مثل سنّي .

سهير : لقد كنت أظنّ أنّ السنوات التى ستضاف الى عمري تزيد من قوّتي دائما .

ليلى : بالعكس . تزيد من ضعفك وخوفك واحتياجك الى الرجل.ان المرأة في الثلاثين أضعف منها فى العشرين

سهير : لا . لا ياليـلى . إنّ رغبتك فى الـزواج تعميك عن حقائق كثيرة .

ليلى : ان المجتمع يا سهير لا يعترف بالمرأة وحدها أبدا .. إنّه يسأل دائما لماذا لم تتزوج ؟

سهير (فى ثورة) : المجتمع ! المجتمع ! إنّى لا أعترف بهذا المجتمع !

ليلى (تضحك) : ها ها ها ها . تقوم وتمسك سهير من يدها .

ليلى : هيّا بنا . هيّا بنا يا سهير نأكل الأرانب بالملوخية . لقد سبقنا محمود وتانت ديدي . هيا .

سهير (تقف وتقول فى حمـاس) : لن أتغيّر يا ليلى . لن أتغيّر !

ليلى : لا داعي لأن نتكلّم عمّا سيأتى . لا أحد يعلم الغيب . ولكني الآن سأتزوّج محمود، يجب ان أتزوّجه،ويجب ان أحافظ عليه لقد قاربت على الثلاثين،ولا أستطيع أن اعيش بلا رجل . هل فهمت ؟

سهير : وهل يعني ذلك أن تكذبي عليه وعلى نفسك ؟

ليلى : إن الحقيقة فى حياة المرأة هىأخطر شيء على حياتها . ان المرأة الصادقة هى أتعس امرأة فى حياتها ولا يمكن لها أن تعيش مع رجل .

سهير : كيف هذا ؟

ليلى : إنّ الرجل يفضّل أن يصدق أكاذيب المرأة وهو لا يعلم انها أكاذيب عن أن يسمعها تقول الحقيقة ..

سهير تفكر فى شرود ..

سهير : ان المشكلة مشكلة الرجل ..

ليلى : لقد فهمت أخيرا .. أخيرا !

ديدي تدخل مندفعة ..

ديدي : ليلى ؟ سهير ؟ اتجلسان هنا وحدكما ومحمود بك ينتظركما على المائدة ؟ هيّاهيّا الملوخية ستبرد .

يخرج الجميع .

(ســـــتار)

نادية لم استطع !

فرك جفنيه وتثاءب وتمطّى ، وشعر بارتخاء يسري في روحه وجسده •• الارتخاء اللذيذ الذي يحدث في اللحظة العجيبة التي تتأرجح بين غيبوبة النـوم وانتبـاه اليقظة حين يشـرع العقل الباطن في النوم ويكون العقل الواعي لم يستيقظ بعد ••

ومدّد كيانه منتشياً بتلك اللحظة الهلامية الناعمة ، الهاربة من كلا الزمان والمكان ، الضائعة من كلا الوعي واللاوعي •• وشعر أنه تحرّر من العقلين معاً •• وتخلّص وجدانه من ثقلهما فأحسّ أنّه خفيف كالريشة شفّاف كالبللور ••

وانفرجت شفتاه عن متعة غير محدودة لتنزلق من بينهمـا حروف متماسكة كحبّات اللؤلؤ وكاد يهتف : نادية ، لولا ان إحساساً غريباً تسرّب الى أنفه ومسام جسده مع رائحة الجدران الجديدة والعـطر والفراش الجـديد ، فانزلقت اللحظة الناعمة لتسقط من الوجود والتصقت الحـروف اللؤلؤية بحلق فمه . وشعر بالحقيقة المرّة تخترق منافذ جسده وروحه مع الصوت. المطوط يقول : الفطور جاهز يا ••

وفتح عينيه ، ورفع ذراعيه يتحسّس السرير ، وأمسك اللحاف الاطلس بيده وضغط عليه ليتأكد من الحقيقه وأمسك ساقه وقرص فخذه بأصابعه ليستوثق من أنه هونفسه بشحمه ولحمه وليس أحداً سواه · وسمعها تردّد بصوتها المطوط : الفطور جاهز يا ··» وتقلّصت عضلات وجهه في ابتسامة تشبه التكشيرة ·· لماذا لا تناديه باسمه ؟ لعلّها مثله ·· على طرف لسانها حروف اسم آخر لا تقوى على الانزلاق من بين شفتيها · أو لعلّه الخجل أو الحياء ·· ولكن أيمكن أن يصفها بشيء من هذا القبيل بعد ما شهده منها في الليل ؟

وتثاءب وتمطى وهو يقول : متشكّر يا ·· وحاول أن ينطق اسمها ويقول «يا عليّة» ولكنّه لم يستطع ، فان عقليه معاً الواعي والباطن لم يتعوّدا أن يجمعا في رأسه سوى حروف نادية ، ولسانه لم يألف الا اسم نادية ملتصقاً بطرفه ·· أسماء نساء كثيرات طرقت أذنه دون أن تجد طريقها الى رأسه ، وأسماء وأسماء مرّت بلسانه دون أن تتعلّق بطرفه أو تلتصق ·

وشعر بيد عروسه الرقيقة تلمس كتفه وصوتها المطوط الناعم يردّد ، الفطور جاهز يا ·· وفتح عينيه على آخرهما ورأى ذراعها البيضاء البضّة تنتشر عليها بقع حمراء صغيرة تفضح منابت شعر كثيف اقتُلع من جذوره حديثاً ·· وابتسم إبتسامة بليدة تشبه التثاؤب وقال : متشكّر يا ·· وجنّد كل خلايا عقله وكل عضلات لسانه ليقول «يا عليّة» ولكنه لم يستطع ·

ورآها وهي تتلوّى أمامه في ثوب شفّاف ، فشعر بغثيان خفيف يشبه الغثيان الذى شعر به في أول شبابه حين خلعت المومس ملابسها في اللحظة التي وضع فيها قدمه على باب حجرتها ·· ذلك الغثيان الذي جعل رجولته كلّها تتسرّب من روحه وجسده وتتركه شيئاً عاجزاً هامداً كأنما فارقته الحياة ·

وتأمّل عروسه وهي تتبختر أمامه شبه عارية، وتساءل، أيمكن أن تكون هي نفسها الفتاة البريئة الساذجة التي أرخت جفنيها في حياء وخفر منذ يومين اثنين وهي تقدّم صينية القهوة في بيت أبيها ؟ أيمكن لمثل هذه الفتاة أن تخلع ملابسها بهذا

الشكل أمام رجل غريب بلا معرفة وبلا تفاهم ؟ وما الفــرق بينها وبين المرأة المومس ؟ كلتاهما خلعت ملابسها أمام رجـل غريب من أجل ورقة صغيرة .. المومس ورقتهـا تدفع فوراً ، والزوجة ورقتها تدفع مؤخراً .. ولكلّ امرأة ثمن .. غالٍ أو رخيص .. يُدفع مقدّماً أو مؤخراً .. ولــكن نادية .. نادية الوحيدة التي لم يعرف ثمنها .. لم تكن لها مطالب تشـبه مطالب النساء .. كانت تشمئزّ من الهـدايا ، وكانت تحتقر الفساتين وحلي النساء .. ولم تكن تنظر الى الذهب أو الورق باحترام .

ورأى زوجته وهي تحوط ذراعيهـا برأسـه ووصـل الى أنفه رائحة عطرها النفاذ مختلطاً برائحة جسمها وروحها، فشعر بالغرابة تحوطه من كل جانب ، لكنه حوّطهـا بذراعيـه في اطمئنان .. فهو يعرف ما يرضيها ويستطيع أن يرضيها دائما دون خوف أو قلق .. وشعر بها وهي تنزلق كقطعة الصابون الناعمة الى جواره .. وسرى دفء جسدها الى كيانه ، جسمه المرأة يثيره ويرضيه . ولكن نادية كانت تزلزل كيانه ، ترج روحه وجسده .. فينتفض انتفاضة عنيفة تخلع عنـه غروره الأكبر ..

لم يكن استسلام المرأة الكامل يرضيه بمثل ما كان يرضيه منها تلك اللمعة العنيفة الصادقة التي تتألّق في روحها حـين يلتقي معها في فكرة أو احساس ، لحظة عجيبة يشعر معها أنه استطاع أن يرضيها هي بالذات .. قلباً وعقلاً وجسـداً .. ولو للحظة قصـيرة .. هي نادية ، التي كان يشعر من حيث لا يفهم أن شيئاً مالا يمكن أن يرضيها ..

ولكن أيّ شعور بالقلق يدفعه من أجل هذه اللحظة القصيرة ؟ أن يستطيع أن يرضيها، كان في حدّ ذاته شيئاً كبيراً .. أكبر من غروره وأكبر من ثقته بنفسه ورجولته .. بل أكبر من طموحه في عمله الذي كان ينسى في غماره أيّ إنسان .. ولكن أيّ ثمن باهظ ثمنها ! كيف يأتي لها بفكرة جديدة كلّ مرة ؟ وكيف يأتي لها باحساس جديد كلّ لقاء ؟ أيّ شـعور بالخوف .. الخوف من الفشل في إرضائها؟!

وسمع صوت زوجته المطــوط الناعم يقول : انت عاوز تنام يا ·· وتمطى فى كسل وهو يقول : أيوه يا ·· وحوّطها بذراعيه فانكمشت كالقطّة الصغيرة بينهما وانفتحت عدســة مخّه على عينيّ نادية العميقتين تتطلّعان اليــه في تسـاؤل : تتركني وتتزوّجها ؟ ودفن رأسه فى صدر زوجتــه هاربا من العينين العسليتين ·· واختنق قلبه بكلمات أوشكت أن تنزلق من بين شفتيه : نادية ·· لم أستطع ! ··

الفهرس

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

هاتف: ٨٣٨١٥٧ - ٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي

من منشورات دار الآداب

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الأرض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الأطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبيبة
- تعلمت الحب
- حنان قليل
- لحظة صدق